

# الشيخ محمد عبده

(١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)

بعده

يعتمد نبوغ النابغ على عنصرين أساسيين : استعداده الفطري — أو بعبارة أخرى طبائعه الموروثة — وبيئته التي عاش فيها ، كالشجرة الطيبة إنما تنبت نباتاً حسناً إذا حسنت بذرتها ، ووجدت من التربة والهواء والماء ما يصلح لها ، فإن كانت البذرة سيئة فلا أمل في شجرة ممتازة ، وكذلك إن حسنت البذرة وساء الغذاء .

وقوانين الوراثة في الإنسان في منتهى التعقيد : ماذا يرث من أبيه ؟ وماذا يرث من أمه ؟ وماذا يرث من آباءه الأقربين ؟ وماذا يرث من آباءه الأبعدين ؟ كل هذا لا يزال غامضاً مع عناية علماء الوراثة بالبحث والتقصي .

على كل حال ورث « محمد عبده » صفات نشأ عليها ، وساعدت بيئته على نموها ، أهمها : الذكاء ، والثقة بالنفس والاعتداد بها ، ويتبع ذلك حب التفوق والعطف .

من أين نبتت هذه الصفات ؟ من تركانية أبيه كما يقال ، أو من عربية والدته إذ يقال إنها من بني عدى ؛ ولكن ما هذا ولا ذلك بالسبب الكافي ، ففي كل من التركان والعرب الذكي والغبى ، والعزيز والذليل . ولا نستطيع أن نتثبت من موضع الوراثة حتى نكون على علم تام بآبائه وأمهاته فرداً فرداً ، وأنى لنا هذا ؟ فليس لنا إذاً إلا أن نقول : إنه هكذا خلق .

ثم كم من الفلاحين الفقراء في الحقول ، وصغار الصنّاع في المصانع ، من ورث من الصفات ما ورث الشيخ محمد عبده بل خيراً مما ورث ، ولكن لم تسعفهم البيئة

وقضت عليهم، وعاشوا وماتوا لم يشعر بهم أحد . ولو وجدوا من الظروف ما وجد  
الشيخ محمد عبده وأمثاله لظهر نبوغهم وعلا اسمهم وآمن الناس بتفوقهم ، والناس  
كالكنوز المدفونة ، أحياناً يُقضى عليها بالدفن الأبدى ، وأحياناً يُمثر عليها فتكون  
مصدر ثراء . وفي عصر الشيخ محمد عبده إلى عصرنا لم تسعنا نظم التربية  
وحالة البلاد الاجتماعية لنستكشف الأحجار الكريمة ، بل هي في أغلب الأحيان  
تعمل على دفنها في الرمال

لا تعجبن من هالك كيف نوى بل فاعجبين من سالم كيف نجى .

هذا هو محمد عبده ينشأ في قرية من قرى الريف كما ينشأ ابن كل فلاح  
في ذلك العصر ، فإذا كان لأبيه بعض اليسر وبعض الوجاهة وبعض الدين  
علم ابنه في الكتاب ، ثم يثبث به إلى الأزهر أو إلى معهد ديني ، وكذلك فعل  
أبوه فأرسله إلى الجامع الأحمدي بطنطا لقربه من بلده ، وليجود القرآن  
بعد أن حفظه ، ثم ليتعلم العلم . فأما تجويد القرآن فأمر ميسور ، يسمع ما تيسر  
فياخذ الشيخ بضبط مخارج الحروف ومقاييس المد والغنة والإدغام وما إلى ذلك .  
وأما العلوم التي يدرسها فطرقها في منتهى العقم — على المبتدئ أن يقرأ  
على شيخ كتاباً في الفقه وكتاباً في النحو ، وأمر الفقه محتمل ، فهو يبدأ بعلمه  
في دقة كيف يتوضأ وكيف يصلي ، وهي أمور مارسها في حياته العملية ،  
فمن السهل التدقيق فيها ما دام الأساس معروفاً . أما النحو فهو الطائفة الكبرى ،  
فهو لا يعلم كما نعلمه نحن اليوم ، فنبدأ بأن الكلمة اسم وفعل وحرف ، ونأخذ  
في مميزات كل منها ؛ إنما كان يعلم كما في كتاب « الكفراوى على الأجرومية »  
وأول درس فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الباء حرف جر واسم مجرور بالباء وعلامة جره  
كسرة ظاهرة في آخره ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره أولف ، وأولف

فعل مضارع مرفوع لتجرده من الناصب والجازم ، والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره أنا . هذا إن جعلت الباء أصلية ، وإن جعلتها زائدة فلا تحتاج إلى متعلق به ، وتقول في الإعراب حينئذ : الباء حرف جر زائد ، واسم مبتدأ مرفوع بالابتداء وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد ، والخبر محذوف تقديره اسم الله مبدوء به « إلخ .

باسم الله ما شاء الله ! هذا أول درس لمن لم يعرف في النحو شيئاً ، فلو أن متكلماً تكلم بالسريانية لكان أهون ، وكيف يستسيغ هذا وهو لم يسمع قبل إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا جرّاً ولم يفهم لها معنى ؛ ومثّل هذا مثلاً كنا نتضاحك منه وكان أعجوبة الأعاجيب ، وهو أن مدرساً في مسجد سيدنا الحسين كان يعظ النساء ، اسمه الشيخ يوسف ، وكان يجلس ويتحلق حوله عوام النساء للتبرك ، فيقرأ عليهن حديثاً من الأحاديث النبوية ويأخذ في شرحه ، ولكنه ينسى أنه يدرس لنساء أميات جاهلات ، أو لا يستطيع ذوقه أن يدرك مقتضى الحال ، وما يصح أن يقال وما لا يقال ، فيتساءل في أثناء شرحه : « لم حُذِفَ المسند إليه ؟ » فيكون الكلام كتلاوة اللاتينية في الكنائس لمن لم يعرف كلمة لاتينية ، أو خطبة الجمعة بالعربية لأتراك لم يعرفوا شيئاً من العربية !

كذلك كان تعليم النحو في الأزهر والجامع الأحمدي للبتدئين . فلو لُطِمت البيداوجيا لطمه مميتة لم تجد شرّاً من هذه اللطمة . ورحم الله الشيخ الكفراوى ، فلو علم ماذا يجنى على المتعلمين كتابه ما خط منه حرفاً .

كانت سن « محمد عبده » إذ ذاك خمس عشرة سنة ، واستمر على هذا عاماً ونصف عام يحاول أن يفهم فلا يفهم ، وكيف يفهم الوضع المقلوب على أنه وضع صحيح ؟ الجمهرة العظمى من المتعلمين على هذا النحو يَمَلُّون ويسأمون وينقطعون عن الدراسة ، وبعضهم كانوا يَخْتانُونَ<sup>(١)</sup> أنفسهم فيزعمون فيما لا يفهمون أنهم

(١) يَخْتانُونَ : يخونون .

يفهمون . وتجلت في صاحبنا سجاياه التي ذكرنا في هذا الموقف ، فهو ذكى إذ فرّق بين ما يفهم وما لا يفهم ، وهو معتدّ بنفسه إذ ثار على الاستمرار على هذه الحال ، وأبى أن يرضى بهذا الهوان ، واختزن هذا الدرس في نفسه ، فتجلى فيما بعد في حمله عبء إصلاح الأزهر والعطف على أهله .

عول أن يتجه إلى الزراعة فيكون فلاحاً كسائر أهله ، وصم على ألا يتعلم ، وصم أبوه على أن يتعلم ، فلما أكرهه أبوه هرب إلى بلدة فيها بعض أقاربه ، وشاء القدر أن يلتقى بشيخ صوفى ، هو الشيخ درويش خضر خال أبيه ، فينقلب محمد عبده كأنه شخص آخر ، حتى كأن عصا سحرية مسّته ؛ وهنا يتجلى فعل المصادفات في حياة العطاء ، فلولا هرب محمد عبده إلى هذه البلدة وملاقاته لهذا الشيخ ، لكان محمد عبده المشهور هو محمد عبده المغمور الذي لا يعرفه أحد إلا بلده ، ولكان شأنه شأن أى فلاح في أى بلدة لا يسجل اسمه إلا في دفتر المواليد ودفتر الوفيات .

وشخصية الشيخ درويش من الشخصيات اللطيفة التي تظهر في بعض البيئات المصرية على قلة ، وقد شاهدت منها في حياتى شخصين . هى شخصية متصوفة تمتازة بنور البصيرة أكثر مما تمتاز بسعة العلم ، تُعرف الدنيا وشؤونها وترهد في قيمتها عن علم لا عن غباء ، وخير عبادتها ذكر الله بالقلب لا باللسان ولا بالأوراد ، تعمل في الدنيا كما يعمل أهلها ولكن في رفق وتسامح وميل إلى الخير . هى شخصية من أولئك الذين يرون الدنيا جسراً إلى الآخرة ، فلا بد أن يُعبّر الجسر في أمان ، يألمون لغفلة الناس وطغيان المادة عليهم وتورطهم في المفاسد ؛ ويُشفقون عليهم ويعملون ما أمكنهم لإيقاظهم في هوادة ؛ يَشعُّ النور في قلوبهم على وجوههم ، فيكون منظرهم وتصرفهم وحركاتهم وسكناتهم منظرأ جذاباً يستدعى الحب والإعجاب .  
اتصل به محمد عبده فكان شخصاً آخر . ولم يكن ذلك عن عصا سحرية

ولا معجزة سماوية ، وإنما هي ظاهرة طبيعية . كان عند محمد عبده عقدة نفسية كوّنها شرح الكفراوى على الأجرومية ، فاعتقد أنه لا يفهم ولن يفهم ، فما فائدة الاستمرار؟ وحلّ الشيخ درويش هذه العقدة بأن أعطاه كتاباً سهلاً في المواعظ والأخلاق ، وجمله يقرأ وأخذ الشيخ يشرح ، فإذا الطالب يفهم ، وإذا العقدة تحل ، ويعتقد محمد عبده أن في الإمكان أن يفهم .

ودرس آخر علّمه له الشيخ ، وهو درس « القيم » فقد كان محمد عبده كعامة الناس يرون مظاهر الحياة من مال وجاه وزينة وتفاخر وتكاثر في أعلى القائمة ، وأن المسلم — بنطقه بالشهادتين — سيد الناس ، ولا بأس بما ارتكب ، فمصيروه لجنة ؛ فجاء الشيخ ونحا له هذه القائمة وأثبت غيرها ، وجعل القائمة الجديدة مطلعها العمل الصالح بدلَ المال والجاه ، وأن اسم الإسلام لا يصح أن يكون مخبأ ترتكب فيه الجرائم . فالإسلام عقيدة وعمل لا ألفاظ سيّالة تنتهى بمجرد النطق ، وأن المسلمين محاسبون على أعمالهم كغيرهم ، وأن أكثر من يُسمون مسلمين لا يصح أن يدخلوا في عداد المسلمين ، وأن التعاليم الفاسدة ليست من الإسلام في شيء ، وأن أساس الإسلام وأساس العقيدة الصحيحة هو القرآن ، والقرآن وحده ، وأن خير عبادة هو تفهم معانيه .

وكان الشيخ درويش متأثراً بتعاليم السنوسية التي تتفق مع الوهابية في الدعوة إلى الرجوع إلى الإسلام الأول في بساطته الأولى وتنقيته من البدع ، وذلك على أثر رحلته إلى طرابلس الغرب واجتماعه بأتباع السنوسى هناك .

— في سبعة أيام تغير محمد عبده الذى يريد الزراعة والتفوق على الشبان في ألعاب الفروسية إلى محمد عبده الذى يريد الصفاء الروحى والتعلم ، ليستطيع فهم القرآن وإعداد نفسه ليهندي ثم يهندي .

فألى الجامع الأحمدي إرضاء لوالدى وإرضاء لنفسى ، فقد اتفقت الإرادتان .

وبدأ يدرس النحو فإذا هو يفهم لأن المقدمة النفسية قد زالت ، ولأنه بدأ يقرأ الكتاب الثانى فى النحو وهو شرح الشيخ خالد على الأجرومية ، وسوء الوضع جعل الكتاب الثانى أسهل من الأول ، ولعله قد رزق بشيخٍ خيرٍ من شيخه السابق استطاع أن يوضح له ما غمض ويبين ما أبهم .

وإذا بالشيخ محمد عبده يلتف حوله بعض زملائه ليشرح لهم الدرس قبل بدء الأستاذ ، فتعود إليه ثقته بنفسه ، ويسير على الدرب .

كانت هذه الأيام السبعة أيام حضارة تكون فيها كل ما اتجه إليه بعد من إصلاح . فاهتمامه بعد بتفسير القرآن ، وجعله أساساً لدعوته الإصلاحية ، وتنقيته للعقيدة الإسلامية مما أصابها من دخيل ، وتلون حياته بلون صوفى راق ، وزهادته فى المال ، وغيرته الشديدة على إصلاح المسلمين ، كلها غرست فى هذه الأيام السبعة ، ثم نمت وازدهرت وتمدّت وفقاً للظروف والأحوال .

\*\*\*

تحول محمد عبده من الجامع الأحمدي إلى الجامع الأزهر ، لأن الأزهر هو المثل الأعلى للتعليم فى المعاهد الدينية .

والتعليم فى الأزهر إذ ذاك — وكما رأيناه إلى عهد قريب — يُلقى عبء الطالب كله على نفسه من غير أن يحمل أحد أى عبء عنه ، ففاعليه إلا أن يسجل اسمه فى دفاتر الأزهر ثم يفعل ما يشاء ، إلى أن يتقدم لامتحان العالمية ، فهو الذى يختار مدرّسه ويختار علومه ويحضر أو لا يحضر ، ويجد أو يلب ، ويفهم أو لا يفهم . كل هذا متروك إلى نفسه ، وهو أسلوب يفيد الخاصة ويضر العامة .

يأتى الطالب من بلده فيسكن فى حجرة فى حيّ الأزهر ، وقد يشركه فى الحجرة طالب أو أكثر ، وفى الحجرة كل أدواته وأدواتهم ، حصير مفروش على الأرض ، وصندوق فيه بعض الملابس وبعض الزاد ، و(مرتبة) ولحاف يفرّشهما ليلا

ويطويهما صباحاً ، و « حَلَّة » يطبخ فيها بنفسه من حين لآخر في الحجرة نفسها — وقد حدث محمد عبده عن نفسه أنه غضب على كتاب فطبخ به عدساً — ومن حين لآخر يأتيه الزاد من البلد ، بعض الخبز وبعض الجبن وشيء من السمن ، فإن كان أهله في شيء من الثروة فشيء من الفطير وشيء من الدجاج المذبوح ؛ وهذه هي دنياه .

والطالب المجدد يصحو عند أذان الفجر فيصلي الصبح ويذهب إلى الأزهر ليحضر درس الفقه ويستمر الدرس إلى الضحى ، والشيخ يقرأ في الكتاب وهو متربع على كرسي حوله الطلبة ، فإن كان عدد الطلبة قليلاً استغنى عن الكرسي وجلس على فرّوة ؛ أما الطلبة فيتربعون على الحصير ، ومن كان منهم من أبناء الأعيان جلس كذلك على فرّوة ، والشيخ يقرر الجملة ويشرحها والطلبة يسمعون ويعترضون والشيخ يجيب ، وأحياناً يحتدّ الشيخ فيضرب أو يلعن ، ولا ينتقل الشيخ من جملة إلى جملة إلا بعد أن يقتلها بحثاً ، وقد تضيع الساعتان أو الثلاث في سطر إذا اقتضى الحال ، فإذا ختم الشيخ درس الفقه بقوله : « والله أعلم » انصرف الطلبة يبحثون عن « فطورهم » فمن كان منهم له « جِراية » — وهي رغيفان إلى خمسة — تسلمها من رواقه وخرج إلى محيط الأزهر ، حيث دكاكين الفول المدمس والطعمية فاشترى منها ما شاء ، وإن كان طالباً متقدماً بعث طالباً صغيراً يقوم عنه بهذا العمل ، وإن كان فقيراً باع رغيفين أو أكثر من الجراية ، ليشتري بثمنها إداماً ، وإن كان مُترفاً استعاض عن الفول بالجبن والزيتون والحلاوة الطحينية في بعض الأيام ، وإذا ذكرت الأزهر كله مائدة للطعام ، حلقات حلقات ، وعدّ هذا فطوراً وغداءً معاً .

فإذا انتهى الطلبة من هذا جلس المجددون يطالعون درس النحو القادم ، فإذا فرغوا منه كان الظهر قد أذن فتقام الصلاة ويبدأ درس النحو على نحو

درس الفقه ، فيمتدّ ساعات وقد يصل إلى العصر .

وبعد استراحة الطالب يُعدّ درس الفقه القادم ، وينتهي بذلك يومه العلميّ فيعود إلى بيته ، وإن احتاج إلى ضوء فمصباح يشتعل بالجاز بواسطة فتيلة من غير زجاج ، ولا بأس بدُخانه . وإذا اشترك جماعة في حجرة وكانوا فقراء تقاسموا ثمن الجاز ، كلُّ عليه ليلة أو أسبوع ، وقد حدّث «الهللأوى» أنه تنازع مع زميله على ثمن الجاز لأنه لم يشأ أن يدفع نصيبه .

ويتدرّج الطالب في الكتب ، كل سنة كتاب في الفقه وكتاب في النحو ، إلا إذا طال الكتاب فيقرأ في أكثر من سنة ، ولكل كتاب — تقريباً — متن هو الأصل ، وشرح يشرح المتن ، وحاشية تشرح الشرح ، وقد يكون هناك تقرير يشرح الحاشية ، والشيخ يطالع كل هذا استعداداً لما يطره الطلبة عليه من الأسئلة ، فيبدأ الشيخ بقراءة المتن ويشرحه بجميع ما كتب عليه مناقشاً مهاجماً مدافعاً حتى تنتهي المعركة بانتهاء الدرس .

وإذا انتهت كتب الفقه حل محلها كتب أصول الفقه ، وإذا انتهت كتب النحو حل محلها كتب البلاغة .

وعلى هامش هذه الأوقات قد يحضر الطالب المتقدم دروساً صباحية بعد صلاة الفجر مباشرة ، أو دروساً مساءً بعد المغرب في علوم أخرى كال تفسير والحديث والمنطق .

وليس بالنادر أن نسمع صيحة تقوم في الدرس أو قبله أو بعده لاختلاف طالبين على مكان في الحلقة أو نحو ذلك ، فيتضاربان ، ويتعصب أهل الصعيد للصعيدى ، وأهل البحيرة للبحراوى ، فتكون معركة حامية يتدخل فيها جنود الأزهر المسمون بالمشدّين .

فإذا مررت بصحن الأزهر رأيت حُصراً مفروشة نُشر عليها خبز مما أرسله

أهل المجاورين<sup>(١)</sup> إليهم ليتجفف في الشمس خوف العفن .

ورأيت ثياباً منشورة ومياهاً مصبوبة إلخ . وفي الدروس ترى مريضاً بجانب

صحيح ، وقَدِراً بجانب نظيف ، ولم يفكر أحد في إشراف طبيب .

وقل أن تسمع مدرّساً تعرّض في درسه لمسألة خلقية ، أو حتّى على فضيلة

أو حذر من رذيلة .

كل الكتب التي تدرس في الأزهر من نتاج العصور المتأخرة ، تحدّرت من

العصور الزاهية ، ولكن عدا الزمان عليها فأفقدتها رُوحها فصارت شكلاً . النحو

كان يراد منه النطق الصحيح والكتابة الصحيحة وفهم كتب الأدب فهماً صحيحاً

فصار مجرد تفهم لألفاظ المؤلفين في النحو . وأصول الفقه كان يقصد منها التمرين

على الاجتهاد في التشريع فأصبحت ولا اجتهاد ولا تشريع . والبلاغة كان يقصد

منها كيف يكتب القول البليغ فصار المؤلفون فيها أعاجم لا يحسنون التعبير كالسعد

التفتازاني ، حتى أباح لنفسه الشيخ أحمد الرفاعي أن يدرّس أكبر كتاب في البلاغة

وهو المطول ، ثم يعترف أنه لا يحسن أن يكتب رسالة ، ولو غير بليغة ، لأن هذا

من عمل تلاميذ المدارس المدنية .

واشتهر من فطاحل العلماء في هذا العصر : الشيخ أحمد الرفاعي هذا ، وأساس

شهرة أنه يحسن فهم الكتب ويستطيع تحليل الجمل وإثارة الشبهات حولها حتى

يمتد السهل ويفتض الواضح . والشيخ عيش ، وهو شيخ من أصل مغربي ، شهرته

في تدينه وخصيئته ورميه الناس بالكفر لأوهى سبب ، وضيق أفقه وشدّة غيرته

على الدين بالمعنى الذي يفهمه . ولكن كان هناك آخرون هيأتهم الظروف لأن

يتصلوا بالدنيا وحركة التعليم المدنية ، فاتسع أفقهم ، كالشيخ البسيوني إمام المعية ،

(١) المجاورون : من يسكنون الأماكن المقدسة ، ويمتلكون في المساجد ، وقد غلبت

هذه الصفة على طلاب الأزهر في العهود الماضية .

وكان ظريفاً في شكله وفي ملبسه وفي تأليفه ؛ والشيخ حسن الطويل ، وكان ذكياً حكيماً له نظرات في الحياة صائبة ، يقرأ الفلسفة فيرثي بالزندقة .

هذا هو الأزهر الذي رآه محمد عبده . يقوم التعليم فيه على الفلسفة اللفظية ، ويعلم طالبه الدقة في الفهم والقدرة على الجدل . وهذه محمّدة ، ولكن مع الأسف لا تستخدم هذه الدقة ولا الجدل إلا في الألفاظ ، وتجعل صاحبها غارقاً في الاحتمالات بما يراه في الحواشي والشروح من التأويلات ، فكل شيء يجوز حتى دخول الجدل في البندقة — على حد تعبير الشيخ محمد عبده نفسه — يتم الطالب الدراسة فيه فيخرج فاهماً لبضعة كتب ، أما الدنيا وشؤونها فإنه يجملها كل الجمل ، فلا جغرافية ولا تاريخ ولا طبيعة ولا كيمياء ولا رياضة ، فكل هذه علوم أهل الدنيا ، وما للآخرة والدنيا ! ومع هذا فالنزاع على الجراية كثير وعلى الوظائف الصغيرة أكثر ، كل شيء خارج عن المألوف كُفّر أو حرام أو مكروه ؛ فتحويل « الميضة » القدرية إلى حنفيات حرام ، وذهاب للبركة أو قراءة كتب في الجغرافية أو الطبيعة أو الفلسفة حرام ، ولبس « الجزمة » بدعة .

فإن تحركت نفس سالحة للإصلاح خُنقت دعوتها في مهدها ورُميت بالزندقة . ومثل هذه البيئة تنتج عقولاً جامدة ونفوساً خاملة ، إلا أن يتداركها الله بمدد من الخارج . وقد ذكر الشيخ محمد عبده نفسه أنه حاول أن يغسل أثر هذه البيئة فنجح في بعض وفشل في بعض . فإن رأيت نابغة خرج منها فبرغما لا بفضلها . ومن الأسف أن ولاية الأمور من أول الأمر ، مع علمهم بنقص الأزهر وحاجته إلى الإصلاح — خوفاً من العلماء والرأي العام — تركوه وشأنه يأكل بعضه ، وأنشأوا بجانبه المدارس المدنية يشكّلونها كيفما يشاءون .

\*\*\*

في هذا الجو عاش صاحبنا نحو اثني عشر عاماً ، من سنة ١٢٨٢ — ١٢٩٤ حيث نال شهادة العالمية من الأزهر .

وفي هذا الجو المظلم كانت تلمع ثلاثة نجوم أضاءت جوانب نفسه : الشيخ درويش ، والشيخ حسن الطويل ، والسيد جمال الدين .

فالشـيخ درويش كان يلقاه الشيخ محمد عبده في بلده في الإجازة من نصف شعبان إلى نصف شوال كل عام ، فيتم له ما بدأه منذ لقّنه الدرس الأول في التصوف وتنقية العقيدة ، ويعرض عليه الشيخ محمد عبده ما درسه في العام وما في نفسه من أزمات ، فيتلقى ملاحظات الشيخ وإرشاده ؛ وقد لقّنه درسين جديدين هامين : الأول نقد الشيخ محمد عبده لعزلته وعدم اتصاله بالناس وقصر عنايته على تكميل نفسه من غير اتجاه إلى إصلاح من حوله ، ولم يكتب الشيخ درويش في ذلك بالكلام النظري ، بل حمله على أن يفتش المجتمعات في البلد معه ، ويتحدث إلى الناس ويعظهم ويذكّهم ، ويدعو محمد عبده للتحدث معهم كحديثه ونصحهم كنصحه ، وهو درس انتفع به محمد عبده ونفّذه طول حياته إلى نفسه الأخير . فإن زاد السيد جمال الدين شيئاً في هذا الدرس فهو تعليمه كيف يختار موضوعات الكلام في الإصلاح . والدرس الثاني الذي علمه له الشيخ درويش هو هدمه للنظرية الأزهرية التي تقول إن هناك علوماً تعلم وعلوماً لا تعلم ، فكسر الشيخ درويش هذه الحدود ، وقرر أن كل العلوم يجب أن تعلم ويجب أن يطلبها الطالب ما أمكن ، ولا يستثنى من ذلك شيئاً ، إلا ما يتخذ شكل العلم وليس بعلم كالسحر والشعوذة ، أما المنطق والفلسفة والرياضيات وما إلى ذلك فليست بحرام ، بل هي واجبة على طالب العلم . ومن أجل ذلك عاد الشيخ محمد عبده إلى الأزهر يطلبها فوجدها عند الشيخ حسن الطويل ، وهو شخصية غريبة ؛ ذكاء حاد ، ومعرفة بالرياضيات حتى كان يحلّ لطلبة دار العلوم ما أشكل عليهم من تمرينات

هندسية ، واتصال بكتب الفلسفة القديمة ، وعلم بمصطلحاتها ، ومعرفة بالدنيا وبالسياسة ، وشجاعة في الكلام بما يعتقد ولو حُرِّم منصبه في دار العلوم ، وزُهد في الدنيا حتى لا يهيمه منها شيء ، يلبس قفطاناً من « البفتة » وجبة من « البفتة » أيضاً ، ويقال له : إن عليّ مبارك باشا سيزور دار العلوم غداً فيعزم أن يلبس كما يلبس كل يوم ، فيُنصح له بأن يتخذ شيئاً من الأناقة ، فيقول : إذا أبعث بحجة من الصوف وقفطان من الحرير إلى دار العلوم ، أما إن أردتم « حسن الطويل » فهو هو في ملبسه . ويدعى إلى مواعيد الأغنياء للإفطار في رمضان فيأكل من طبق الفول ويَزهد فيما عداه ، ويُطرد من دار العلوم لكلامه في السياسة ، فينفق عليه صاحب مُقهى بلديّ ، فإذا عاد إلى عمله سلمه الشيخ حسن الطويل مرتبه ليصرف على بيتيهما كما كان يفعل وهو مطرود . ويدرس في الأزهر الفلسفة والمنطق فيحضر دروسه نخبة من الطلبة مثل محمد عبده ، فيُرْمي هو وتلاميذه بالزندقة . ولكن دروس الشيخ الطويل تفتح شهية الشيخ محمد عبده ولا تغذيه ، فيجد الغذاء الكافي عند السيد جمال الدين وقت حضوره إلى مصر ، فيتصل به ويلازمه ، وتفتح له آفاق كانت مغلقة ، ويحس أنه وجد طلبته .

\*\*\*

كان السيد جمال الدين الأفغاني شعلة ذكاء ، وقوة هائلة ، متحركة محرّكة ، لا يمسها ماس إلا شُحن من كهربائه على قدر استعداده ، دائم التفكير ، دائم القول لمن يفهم ومن لا يفهم ، دائم النقد ، دافع للحركة والثورة والهيجان في المطالبة بالحقوق ، حيثما حل رأيت نارا تشتعل وأفكاراً تهيج ، ومطالب تُطلب ، وحكومة تضطرب — قد حدد غرضه في الحياة ، ووهب نفسه للوصول إليه ، وهو إنهاض الدول الإسلامية من ضعفها ، وتبصرة شعوبها بحقوقها ، ورفع نير

الأجنبي عنها ، وتحديد مركز الحاكم والمحكوم فيها ، وربط هذه الدول كلها برباط واحد مع الخلافة في الأستانة .

ووسيلته في ذلك تنوير عقول الخاصة من أبناء كل دولة حتى يعرفوا مركزهم ، وإعدادهم لمهاجمة الغاصبين من الأجانب والمستبدين من الحكام ، ثم هؤلاء يعملون لتكوين الرأي العام بكتابة المقالات في الجرائد والمجلات والخطب في المحافل ، والأحاديث في المجالس ؛ وكلما كانت المقالات والخطب أحرّ ناراً وأجهرَ بالرأي وأصرحَ في الدعوة إلى العمل كانت أجودَ وأنسبَ . هذه خطته في كل بلد يجهله .

اتصل به في مصر محمد عبده ، وسعد زغلول ، وإبراهيم اللقاني ، وإبراهيم الهلباوى . كما اتصل به في مجالسه الخاصة محمود سامى البارودى ، وإبراهيم المويلحى ، وأديب إسحق وغيرهم . كان له درس علم في بيته ، ودروس سياسة واجتماع في مقهاه الذى يجلس فيه ، وحيث يكون زائراً أو مزوراً .

وكان أقربهم إلى نفسه محمد عبده ؛ قرأ فيه « السيد » الذكاء وحسن الاستعداد وطيب القلب والحماسة للإصلاح ، وقرأ محمد عبده في أستاذه سعة العقل ، وصحة الإرشاد ، والسمو في النفس ، ونبل الغرض ، وشيئاً جديداً لم يره في الأزهر .

لم تكن الكتب التى قرأها عليه محمد عبده ذات قيمة في نفسها ، فهى من جنس ما كان يقرؤه على الشيخ حسن الطويل ، ولكن العبرة ليست بالكتاب وإنما هى بشارح الكتاب ، والعالم الماهر يستطيع أن يصب كل تعاليمه أثناء كلامه على نملة أو نحلة ، وأى جملة في نظره يستطيع أن ينفذ منها إلى العالم الفسيح .

استفاد محمد عبده من السيد بصرأً بالدنيا التى حجبتها الأزهر ، وتحولاً من تصوف خيالى إلى تصوف فلسفى عملى ، ورغبة صادقة في العمل للأمة ، وشوقاً إلى الإصلاح الدينى والخلقى والاجتماعى ، وميلاً ملجأً إلى إجادة قلمه حتى يتصل

بالرأى العام من طريق الكتابة في الصحف .

وأحسن الشيخان وحدة الغرض والانسجام فنلازما وتحاباً ، يجب محمد عبده أستاذه حب إجلال، ويجب الأستاذ تلميذه الكبير حب رعاية وأمل في استخلافه، ووثق الصلة بينهما اشتراكهما في الإباء والسمو والعظمة ، إذ يترفعان عن الناس في غير كبر، ويستصغرانهم في عطف من غير احتقار . يقول محمد عبده : « إن أبي وهبني حياة يشاركني فيها عليّ ومحروس ( وهما أخوان له كانا مزارعين ) والسيد جمال الدين وهبني حياة أشارك فيها محمداً وإبرهيم وموسى وعيسى ، والأولياء والقديسين » .

نال الشيخ محمد عبده شهادة العالمية من الأزهر ، فلم يكن كغيره مثل ساقية « جُحا » ، تملأ من البحر وتصب في البحر ، بل علّم في الأزهر ، وعلّم في دار العلوم ، ومدرسة الألسن ، واتصل بالحياة العامة .

\*\*\*

لم يعلم في الأزهر النحو والفقّه كما كان يفعل غيره من المشايخ وخاصةً المبتدئين بالتدريس ، فالنحو والفقّه — كما يدرسان في الأزهر — من العلوم النقلية ، وهو يريد أن يربّي العقل ، ويفهّم الكون ، ويهذب الخلق . كان يقرأ في الأزهر أو ملحقاته درساً في المنطق والفلسفة والتوحيد ، وكان يقرأ في بيته لبعض الطلبة تهذيب الأخلاق لمسكويه ، واهب له يقرأ لهم أيضاً « تاريخ المدينة في أوربة وفرنسا » لمؤلفه الفرنسي « فرانسوا جيزو » الذي عمره « حنين نعمة الله خورى » وسماه « التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوربية » .

وعين مدرساً للتاريخ في دار العلوم فلم يقرأ لهم ملخصاً من ابن الأثير والطبري ، وإنما قرأ لهم مقدمة ابن خلدون ، وألف لهم كتاباً في « علم الاجتماع والعمران » فقد ولم يُعثر عليه .

واتصل بالجراند - وخاصة الأهرام - يكتب فيها مقالات في الإصلاح الخلقى والاجتماعي .

كانت مصر في آخر عهد إسماعيل هائجة مأهجة إذ وقعت في الدين ، فكان هذا أوربة من التدخل في الشؤون المصرية ، ومراقبة ماليتها . فأنشئ صندوق الدين والمراقبة الثنائية سنة ١٨٧٦ م = ١٢٩٣ هـ وتغللت سلطتها في المصالح الحكومية باسم الدين . ومن الناحية الداخلية كان الوعي القومي ضعيفاً ، لا يرى الناس لهم رأياً يصح أن يبذوه ، وليس لهم أن ينقذوا عمل الحاكم ، فما على الحاكم إلا أن يأمر وما على المحكوم إلا أن يطيع ؛ فكانت هذه الأمور كلها مدعاة لأولى الرأي في الأمة أن ينهضوا بالصَّحافة ويشيعوها بين الرأي العام ويقووها ؛ وتعاون على إنهاضها الخديو إسماعيل والسيد جمال الدين الأفغاني ورياض باشا . فأما الخديو إسماعيل فرأى من مصلحته ومصلحة الأمة أن تكون الجرائد حرة في نقد التدخل الأوربي ؛ أما إذا نُقِدَ هو شخصياً فالعقوبة الشديدة ، كما حدث لصاحب جريدة الأهرام لما أشار إلى مال صُرف من الخزينة ، ولم يعلم مصيره ، وكما نُقِيَ يعقوب صَنُوع صاحب جريدة « أبو نضارة » لاقتفاده أعماله .

وأما رياض باشا فكان ذا رغبة إصلاحية في تنظيم الشؤون المالية وتهذيب العقول وتشجيع الآداب ، وكان مدركاً لخطر الذي يهدد البلاد ، فلعل في الجرائد وحريتها ونقدها وتنبيه الشعور القومي ما يدفع هذا الخطر ، ولهذا شجّع السيد جمال الدين وحزبه على الكتابة .

وأما السيد جمال الدين فثأر على سوء الحال في مصر وجهود الناس وبرودتهم إزاء ما يكتبونهم ، فهو يريد أن يشعلها ناراً ، ولا أصلح لذلك من الجرائد . ولعل دروسه في الفلسفة لم تكن إلا ستاراً لبت روح الثورة وإعداد طائفة من الشبان يتصلون بالصَّحافة ويكتبون .

ربّي على هذا طائفة من الشباب الذين ذكرنا .

فبعد اتصال محمد عبده بالسيد بدأ يكتب في الأهرام في السنة الأولى من صدورهما سنة ١٨٧٦ ، وكان مجاوراً ، قبل أن ينال شهادة العالمية ، فكتب مقالا في « الكتابة والقلم » وآخر في « المدبر الإنساني والمدبر العقلي الروحاني » وثالثاً في « العلوم العقلية والدعوة إلى العلوم العصرية » إلخ ، وهي مقالات تدل على تأثره بالكتب الفلسفية الشرقية التي درسها ، وعلى رغبته الخيرة في الإصلاح ، وعلى ما يبشر بالخير منه ، أكثر مما تدل على أسلوب قوى وبلاغة ممتازة .

ثم اتصل بالصحافة اتصالاً قوياً بعد أن نال شهادة العالمية ، وبعد أن نزل الخديو إسماعيل عن عرشه ، وتولى توفيق ونفى أستاذه جمال الدين ، وتولى رئاسة النظائر رياض باشا فجده في تنظيم شئون الدولة من مالية وأشغال ومعارف ، وكان له ميل قوى إلى تشجيع الحركة الأدبية ، فشجع بطرس البستاني على إخراج دائرة المعارف ، وكان واسطة في أن يمنحه الخديو إسماعيل منحة مالية وعلمية ، وشجع أصحاب مجلة المقتطف على نشرها ، وشجع شبلي شميل صاحب مجلة الشفاء ، ولما سمع بعزمه على السفر لدراسة الأساليب الحديثة لمرض السل أعانه إعانة مالية على ذلك .

واتجه — فيما اتجه — إلى إصلاح « الوقائع المصرية » واختار الشيخ محمد عبده لهذا الإصلاح ، فضم محمد عبده إليه سعد زغلول ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وإبراهيم الهلباوى ، والشيخ محمد خليل ، والسيد وفا . وكان من وسائل إصلاحهم إنشاء قسم في الوقائع غير رسمي بجانب الأخبار الرسمية تحرّر فيه مقالات أدبية اجتماعية إصلاحية ، وكان الشيخ محمد عبده هو المحرر الأول .

مكث الشيخ محمد عبده في هذا العمل نحو ثمانية عشر شهراً . وفي الحق أنه برهن فيها على شخصية قوية ، فجعل من هذا العمل العادى رقابة على المصالح

الحكومية ومنبراً للدعوة إلى الإصلاح ، فاستصدر قراراً بلائحة تجعل جميع إدارات الحكومة ومصالحها الكبرى ملزمة أن تكتب إلى إدارة المطبوعات بجميع ما لديها من الأعمال الهامة التي تنوى عملها ، والمحاكم أن ترسل جميع نتائج أحكامها — وتبيح لإدارة المطبوعات حق النقد لأي عمل من الأعمال حتى وزارة الداخلية التي يتولاها رياض باشا والتي تعد إدارة المطبوعات تابعة لها ، وأن تسأل كل مصلحة عن حقيقة ما وجه إليها من نقد في الجرائد العربية والإجنبية . وعلى الجملة جعلها أداة إشراف على الحكومة وعلى ما ينشر في الجرائد العربية من حيث لغتها وموضوعها ، وعلى الجرائد الأجنبية من حيث نقدها . وقد وافق هذا هوى في نفس رياض ، لأنه يمكنه من ضبط الأمور والإشراف على الجرائد . وقد كتب الشيخ في هذا العهد مقالات كثيرة أهمها في نقد نظارة المعارف ، وكان من أثر ذلك إنشاء المجلس الأعلى لها واختياره عضواً فيه ؛ ونقد لبعض الأخلاق والمبادئ الاجتماعية والدينية ، وتوضيح لنظام الشورى وما يصلح منه في مصر ، وأحياناً — تصريحاً أو تلميحاً — في تأييد لوزارة رياض باشا ومدحها .

والواقع أن وزارة رياض باشا قسّمت البلاد قسمين :

مؤيد ومعارض ، والمعارض معارض بالحق وبالباطل .

كان رياض يريد الخير لمصر ولكن من طريق التدرج ، ويعتقد أن المصريين في حالة تدعو إلى الإشفاق والأخذ بيدهم في هودة ، وهو في هذا قوى جبار ينفذ ما يريد في عنف ، له لازمة وهي « هيه » إذا قالها رعب من حوله ، لا يعبأ إذا اقتنع بشيء من إصلاح أو بشخص من الأشخاص أن ينفذه ويؤيده مهما كانت النتائج . وإلى ذلك يعتقد في الأجانب من إنجليز وفرنسيين القوة ويسالمهم ، ويرى الطريق الوحيد هو التفاهم معهم .

فتأملت عليه الجموع ؛ منهم من كرهه لصلّته ، ومنهم من كرهه لعدله في إبطال

السُّخْرَة والضرب بالكرباج ، ومنهم من كرهه لسيرته مع الأجانب ، حتى سموه « رياضستون » على وزن « جلاستون » ، ومنهم الطَّمُوح الذى كرهه لرجميته . وشعر الناس بغضب الخديو توفيق عليه لأنه يعارضه فى بعض أغراضه وتصرفاته ، فشجهم هذا على محاربتة ، وتخصّصت جرائد لتجريحه وسبّه ، مع أنه كان مؤيدها من قبل أو خالقها .

هنا بُذرت بِذرة الثورة العرابية ، وفى هذه الظروف كان الشيخ محمد عبده على رأس الوقائع وإدارة المطبوعات ، فكان يهاجم لأنه من أتباع رياض ، وكان هو نفسه يشعر بالحرية التامة فى نقد الشئون الاجتماعية والعادات الدينية ، لكنه يشعر ببعض القيود فيما يمسّ المسائل السياسية ، إما اعترافاً بمجمل رياض عليه وعلى أستاذه ، وإما نزولاً على مقتضيات الوظيفة ، وإما اعتقاداً بمذهب رياض فى التدرج ، وإما كلها مجتمعة . حتى كانت الثورة العرابية .

\*\*\*

يكاد يكون فى كل جماعة نوعان من القادة : نوع طَمُوح يريد القفز إلى الأمام ولا يرضيه السير البطيء ، ولا التفكير الهادئ ، ونوع يرى الخير فى الهدوء والسير فى معالجة الأمور برفق ، والإيمان بقانون السبب والمسبب ، فإن أردت النتيجة فكون مقدماتها ؛ وهذا الميل إلى هذا أو ذلك يتبع ازواج الشخصى — أولاً — والتربية والظروف — ثانياً — فمن الناس من خلق هادئ المزاج يُصنئ إلى حكم العقل ، ومنهم من خلق نارى المزاج يُحكّم بمواطنه ويحكمها ؛ وهذان النوعان يسميان أسماء مختلفة باختلاف الأمم والأزمنة : أحرار ومحافظون — اشتراكيون وغير اشتراكيين — أحزاب اليمين وأحزاب اليسار إلخ . والمعنى واحد وإن تعددت الأسماء .

وكان في مصر في أول عهد الخديو توفيق بالطبيعة هذان المزاجان — أو هاتان النزعتان — كلاهما يتفق مع الآخر في وصف سوء الحال : الفلاح بأئس وشقى وجاهل ومظلوم ، ومصر كلها شقية بما جر عليها الدين من تدخل الأجنبي وخاصة الإنجليز والفرنسيين في شئونها حتى تفاصيلها ، وشقية بأداتها الحكومية من انتشار الرشوة والمحسوبية وتفضيل العنصر الشركسي والتركي على المصري . وشقية بأن سواد الشعب ضعيف الوعى ، مستكين للظلم ، لا يرفع صوتاً من أى جور يناله ، ولا يفهم أن له حقاً يطالب به — كل الأطباء من الفريقين متفقون على تشخيص المرض ، فإذا هم أخذوا في وصف العلاج اختلفوا .

فأما فريق المحافظين فيرون برنامج العلاج — أولاً — نشر التعليم الصحيح بين أفراد الشعب ، على أن يكون من أهم ما يشمله تفهيم الناس الحقوق والواجبات . ثانياً — استخدام الصحافة استخداماً قوياً في محاربة المفاسد وتنبيه الوعى القومى . ثالثاً — الاجتهاد فى أن يكون رئيس الحكومة حازماً عادلاً ينفذ الإصلاح المعتدل المنشود فى قوة . رابعاً — التدرج فى الحكم النيابى بالتوسع فى سلطة مجالس المديرىات — مثلاً — تبعاً للوعى القومى ، فإن رقى هذا الوعى بالتربية والتعليم نما المجلس النيابى تبعاً له حتى يصبح بعد سنوات والوعى القومى قوى ، والمجلس النيابى قوى ، ولا فائدة من مجلس نيابى يوضع وضعاً قوياً ما لم تُسانده الأمة والرأى العام ؛ ولا يمكن ذلك الآن والأمة فى حالة قل أن نجد فيها معارضاً قوياً يجرؤ على نقد الحكومة . وكان من هذا الرأى محمد عبده ، وسعد زغلول ، ومن لف لف لفهما ، وبهذا دعوا فيما كانوا يحررون فى الوقائع المصرية ، وفيما كانوا يقولون ويخطبون . وكانوا يرؤن فى رياض باشا — وهو على رأس الحكومة — المحقق لهذا الغرض ، فهو عدل نزيه حازم ميال للخير محب للإصلاح قابل للنصيحة لو جاءت ممن يثق به — على الرغم من عيوبه الأخرى .

أما الطائفة الأخرى فكانت نواتها أفراداً تعلموا في أوربة لم من طريق البعثه ، وعاشوا فيها زمناً طويلاً ، ورأوا نظمها ولسوا حرية أفرادها ، وأعجبوا ببحرية سياستها في نقد الحكومة وأعمالها ، وعادوا إلى مصر ففتقروا من حالها ونظامها ، فدعوا في مجالسهم وجرائدهم إلى إصلاح وثاب . أو أفراداً تعلموا على الأنماط الأوربية ، وثقفوا ثقافتها ، وهؤلاء يريدون حرية شخصية للفرد في أعماله وعقائده ، ولا يسمحون للحكومة أن تتدخل فيها ما لم يقع العمل تحت سلطة القانون ؛ وحرية سياسية تامة في نقد الحكومة وأعمالها ، وأهم ما في هذا الباب إنشاء مجلس نيابي مستقل على النظام الإنجليزي أو الفرنسي ، له الإشراف العام على الحكومة ، وهي مسئولة أمامه لا أمام الخديو . وكان على هذا الرأي بعض المصريين ، وبعض الجالية السورية .

وتجادل الفريقان في هذه المبادئ أيما جدال ؛ وهذا ما يفسر كل ما صدر من الشيخ محمد عبده في مقالاته في الوقائع وغيرها ، فهو يُعنى فيها بأمر التربية والتعليم ، ويلح في إصلاحها وينال من ذلك بعض غرضه ، وينقد العادات السيئة ، ويدعو إلى التخلص منها ، ويدعو إلى احترام القوانين وإطاعتها . ومن ناحية أخرى يكتب مقالا عنوانه « خطأ العقلاء » يهاجم فيه الفريق الآخر ، في دعوته إلى الحرية الشخصية ، والحرية الاجتماعية ، ففي الحرية الشخصية يرى أنها ضارة ما لم تدعم بالتربية ، وإلا سقط الناس في الخمر والقمار وهتك الحرمات ، وجاهروا بالإلحاد . بل نراه يفضل « الكبسة » على الحرية الشخصية من غير تربية ، والكبسة عادة كانت جارية ، وهي أن يهجم رجال الضبط على بعض الأماكن المشبوهة ليلا ليقبضوا على من يُظان فيهم الاجتماع خمر أو فجور ؛ فيقول : « قال كبسة على ما كان فيها من الخطر على الأنفس والأموال وشناعة الصورة لو أحسن فيها القصد لكانت أولى وأفضل ، إلى زمن تتقدم فيه التربية ، فيكون لكل شخص

زاجر من نفسه فترتفع الكبسة بذاتها . وكذلك رأيه في الحرية السياسية ، يرى أن يبدأ بإصلاح المجالس البلدية وتعويد الأهالي السير عليها قبل مجلس نيابي منقول نظامه عن أوربة . ثم يستمر متمسكا بهذا الرأي حين يقول : « إنما ينهض بالشرق مستبد عادل » ردأ على من يرى أنه إنما ينهض بالشرق حكم نيابي شامل ، ويرى في هذا المقال أن هذا المستبد العادل يستطيع أن يفعل في خمسة عشر عاماً الأعاجيب ، وينقل الأمة خطوة واسعة إلى الأمام .

ويرى الفريق الآخر أن الحرية الشخصية حق طبيعي للإنسان لا يصح أن يهدر لأى سبب ، ومثل من يقول بالقضاء عليها لسوء استعمالها كمن يريد إبطال السكك الحديدية لأن القطار يقتل بعض الأفراد ، والغفلة التي تحتاج إلى حارس أقل قيمة من أن يحرستها حارس .

وأما الحرية السياسية فلا بد منها لمعالجة ما أصاب البلاد من الاستبداد ، والمستبد العادل إذا ظفرت به أمة أعقبه في الأعم الأغلب مستبدون ظلمة ، فلا يصلح إلا أن يكون علاجاً مؤقتاً . والحكم النيابي هو الأمل الوحيد في الإصلاح ، فإن كان الناس لم يتعودوه فليتعودوه ، ولا بأس من مضي قليل من الوقت حتى يألفه الناس ويسيروا عليه .

وكان من السنة هذه الدعوة شاب سوري اسمه أديب إسحق . كان ذكياً كاتباً شاعراً خطيباً متقناً ثقافة واسعة ، مطلعاً على شئون العالم الأوربي وتاريخه ، يجيد العربية والفرنسية والتركية مطلعاً على آدابها ، وأسلوبه في الكتابة أقوى من أسلوب الشيخ محمد عبده وصحبه يوم كانوا يحررون في الوقائع ، تتلمذ أيضاً للسيد جمال الدين في مصر ، وتشرب من روحه ، وكان متأثراً تأثراً كبيراً بالعقلية الفرنسية ، على حين كان الشيخ محمد عبده متأثراً بالعقلية الأزهرية والشرقية ،

وحتى في سيرته الشخصية كان مسرفاً على نفسه ، على حين كان الشيخ محمد عبده متديناً ورِعاً .

كان لأديب إسحق هذا جريدتان يحرر فيهما ، وهما : « مصر » و « التجارة » ، وكان شعلة ملتهبة يعيش عيشةً عنيفة على حساب أعصابه ، فكان يهاجم الاستبداد ويطالب بالحكم النيابي في أكل صورته . يقول : لقد عرف الناس الآن شرور الاستبداد ، وترفت نفوسهم بالعلم عن الرضا به ، وصار الأمر شورى عند جميع الدول المتمدنة إلا روسيا ، وذلك إن صحت تسمية الدولة المستبدة مطلقاً بدولة متمدنة . إن ثورة فرنسا برزت إلى عالم الفعل عام ١٧٨٩ وصدمت قوة الاستبداد فزلزلتها ، ودفعت سطوة التقليد فضعضتها ، ورفعت عن العيون نقابها ، وعن النفوس حجابها ، فأنست من جانبها نور الحرية ، وخلعت جلايب الرق والعبودية ، فتصدى لها أعوان الرق وأنصار العبودية ، وما ألوا<sup>(١)</sup> في قتالها جهداً ، فلقبتهم وهي ترى الموت في الحرية حياة ، والحياة في الرق موتاً ، فلم يبلغوا منها قصداً ، ورسخت في عالم الوجود قدمها ، وأدهشت الدنيا بشدة حؤولها إلى الخ . ويهاجم رياض باشا وصحبه في مذهبهم ، وينعى عليهم اعتقادهم في ضعف المدارك المصرية ويقول : « زرت رياض باشا على عهد الوزارة الأجنبية في ديوان الداخلية ، فقابلته خارجاً من الغرفة فجلسنا على مقعد الباب ، فقال : كيف ترون الحال ؟ قلت : رأى الوزير أوسع . قال : وما الذي يبلغكم من أخبار الريف ؟ قلت : إن الناس أملاوا كثيراً ولم ينالوا شيئاً ، فأوشكوا أن يعودوا إلى اليأس بعد الرجاء ، والوزير يعلم أن النكسة شر من الداء . فقال بازدرأ : فليرجعوا إلى حالة الخسف ويعانوا عذاب الظلم . قلت : إنهم لا يرومون ذلك ، ولكن يرومون نيل الحرية وتأييد الكلمة الوطنية . فقال متهكاً : ألا يرجون مجلس النواب ؟ قلت . لا بدع

(١) : ما ألوا ، أى ما قصرُوا .

أن يُطلب الشيء من معدنه . فقال : أى معدن فى مثل هذا المجلس ؟ وكيف يرجى له البقاء ؛ وليس فى مصر من يعلم شيئاً من الأحوال السياسية الدولية ليصلح أن يكون نائباً ؟ قلت : إن صح هذا الرأى فلا يقضى بحرمان البلاد من نعمة الشورى ، فإن النواب المصريين يستطيعون النظر فى أمورهم الداخلية وأحوالهم الزراعية ، وما يترتب عليه نفع البلاد ليستجلبوه ، وما ينشأ عنه الضرر ليجتنبوه ، وهم بذلك أحق من غيرهم ، فإن صاحب البيت بالذى فيه أدرى . فهمم بكلام لا يفهم ، وانصرفتُ .

وكان يكثر الكلام فى الوطن والوطنية ، والحقوق والواجبات ، والدستور ، وغير ذلك من الموضوعات الملونة بالثقافة الفرنسية ، مع الاجتهاد فى وضع مصطلحات عربية موقفة .

وكان زعيم أديب إسحق وصحبه هو شريف باشا ؛ إذ كان شريف - كما صوره الشيخ محمد عبده - « من أقوى عوامل النهضة التى انقلبت إلى فتنة . كان من القائلين بأن النفوذ الأجنبي قد بلغ حدّاً لم يكن يمكن أن يبلغه لو لم يتساهل رياض باشا بالتسليم للأجانب فى كل ما يطلبون . وكان يُقنع جلساءه أنه إذا حَكَم أوقف الأجانب عند حدودهم وسار بالوطن شوطاً عظيماً فى مجده » وكانت سياسته إنشاء مجلس النواب فى صورة قوية « وأخذ الناس يقولون : لا صلاح فى الاستبداد بالرأى وإن خَلَصت النيات ، فرأى واحدٍ عرضة للخطأ وإن تحققت نوايته من الغرض . »

وكان هؤلاء ينظرون إلى محمد عبده وصحبه وعلى رأسهم رياض على أنهم حزب رجيمى . ويظهر أنه لم يكن رجيمياً ، وإنما كان حزباً مصلحاً محافظاً يرى التؤدة ولا يرى الطفرة .

وقد أغلق رياض جريدتى « أديب إسحق » ونفاه ، ولما أُلِف شريف مجلسُ

النواب استدعاه وعينه رئيساً لقلم الإنشاء والترجمة بنظارة المعارف ، ثم سكرتيراً في مجلس النواب ، ثم مات شاباً في التاسعة والعشرين من عمره .  
ومع الأسف لم يكن مصدر الثورة هذا الحزب الذي يطالب بالمجلس النيابي والحرية الشخصية ، ولو كان لا اتخذ الثورة وضعاً آخر ، ولنظراً إليها على أنها ثورة من الأمة لتحقيق العدل . إنما بدأت الثورة من الحزب العسكري وعلى رأسه عرابي ، بطالبون بتحقيق المساواة بين الضباط المصريين والضباط الشركسيين ، ولكن اتسعت الثورة رويداً رويداً ، وزادت مطالب عرابي باشا شيئاً فشيئاً ؛ فترجم - أيضاً - الوطنيين وطلاب المجلس النيابي ، وانضم إليه سلطان باشا أول الأمر - وكان من الناقمين على رياض والمطالبين بالحكومة النيابية - وبانضمامه انضم كثير من الأعيان وعلماء الأزهر ، ثم انضم الشعب بأجمعه تهيجه الجرائد الثائرة ، وعلى رأسها عبد الله نديم ، وامتزجت مطالب الجنود بمطالب الأعيان وبمطالب الأهالي ، وطلب العدالة بين الضباط بطلب الحكم النيابي وبالغاء الاستبداد - وكل ذلك تنفذه القوة العسكرية .

لو حكمتنا منطق الواقع فيما سيحدث لقلنا إن الشيخ محمد عبده لا ينجس في هذه الثورة العرابية مطلقاً ، لا في أولها ولا في آخرها ؛ لأنه لا يؤمن بالحكم النيابي السريع ، ولأنه يشايخ رياض باشا ، ولأنه لا يرضى أن تكون الثورة بيد العسكريين ، ولأنه يكره عرابي باشا ، ويعتقد أنه شهم في الكلام ضعيف في الحرب ، يحتكم إلى المنامات أكثر مما يحتكم إلى العقل ، أليقُ به أن يكون واعظاً للعوام من أن يكون زعيم أمة - وإن كان طيب القلب حسن النية - ولكننا نجد باقراره مناهضاً للثورة في أولها ، مشايحاً لها في آخرها . وليس بصحيح ما يقال من أنه لما تطور أمر الثورة من مطالبة بالمساواة العسكرية إلى مطالبة بالحكم النيابي انضم إليها ، فإنه لم يكن يؤمن بالحكم النيابي العاجل كما قدمنا . إنما الأمر في

نظري أن مسائل الحياة لا تجري على المنطق دائماً وخاصة أيام الثورات . وحوادثنا القريبة في ثوراتنا الحديثة أكبر شاهد على ذلك ؛ فكم انتقل رأى الكبراء من ناحية إلى ناحية تحت تأثير تيار الرأى العام . فالشيخ محمد عبده رأى كل الأمة في ناحية الثورة ، واشترك فيها المسلمون والأقباط واليهود ، ولم يشدَّ عنها إلا أحد رجلين : رجل لا فى العير ولا فى النفير<sup>(١)</sup> ، وهو لا بد أن يكون فى العير وفى النفير . ورجل انضم إلى الخديو توفيق يشايه ، وتوفيق باشا فى نظر الشيخ محمد عبده لا يصح أن يكون أحد بجانبه بعد أن استعان بالدول الأجنبية فى إخماد الثورة ، ومالاً الأجنب على قومه . أضف إلى ذلك أن الأمر آخراً لم يصبح أمر حزب أمام حزب ، بل أمر مصر أمام الإنجليز ، فلا بد أن يكون مع قومه وينشد :  
وما أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت وإن ترشد غزيرة أرشد

فإذا نحن تساءلنا : ما أثر الشيخ محمد عبده فى هذه الفترة ؟

قلنا إن له أثراً كبيراً اعترف به حزبه وخصومه والذين حققوا معه وحاكموه فقد نبه الأفكار إلى الإصلاح فيما كتب فى الصحف وما تحدت فى المجالس وما اتصل بالهيئات المختلفة ، فكان مصدراً كبيراً لشعور الناس بسوء الحال والحاجة إلى الإصلاح مهما اختلف هو وغيره فى طريق العلاج . وكان يمدّه أصحابه وأعداؤه من أقوى العقليات الموجودة إن لم يكن أقواها ، ومن أقوى الشخصيات التى تعمل للخير حسبما تعتقد من غير أنانية . فمن يوم أن عين فى تحرير الوقائع وهو جرم النشاط محرر وراقب ، ويتصل بالمصالح الحكومية ، وينشئ المجالس : مجلس رياض ، وعلى مبارك ، وسلطان ، وعرابى ، وطلبة ، والسراى . وفى كل هذه المجالس يقول ويجادل ، ويقنع ويقنع ، ويشير الحماسة للعمل . وكان للثورة العراية أسباب ، فكان هو سبباً من أسبابها ، ولكنه سبب بعيد ، لا كهبد الله

(١) العير : القافلة تحمل الثروة . والنفير : القوم ينفرون للقتال .

نديم سبب قريب ، ثم انقلب الشيخ محمد عبده سبباً قريباً يوم حميت النار ؛ فلئن اتهم بأنه من زعماء الثورة وحوكم عليها ، لقد كان ذلك حقاً .

\*\*\*

هذا هو الشيخ محمد عبده في بيروت بعد أن قبض عليه لاشتراكه في الثورة العرابية وأودع السجن ثلاثة أشهر للتحقيق ، لاقى فيها الأمرين<sup>(١)</sup> من اضطهاد وإهانة وشماتة أعداء وتنكر أصدقاء وتضييق بالأستئلة وإخراج في الاستجواب ، ثم حُكِمَ عليه بالنفي ثلاث سنوات .

يقيم في بيروت نحو عام — سنة ١٨٨٣ — وسننه إذ ذاك نحو أربع وثلاثين سنة .

ثم لا يلبث أن يدعوهُ أستاذه السيد جمال الدين ليوافيه إلى باريس فيلبي الدعوة ، ويشتركان في إخراج مجلة « العروة الوثقى »<sup>(٢)</sup> . للسيد التوجيه والروح ورسم الخطط وإبداء الأفكار ، والشيخ التحرير والصياغة وتفصيل المعاني .

إدارة الجريدة في غرفة صغيرة في سطح منزل في باريس ، هي مكان التحرير وملتی الأتباع ومجمع الأفكار ، وهذه الغرفة الصغيرة أثارت الأفكار وأخافت الإنجليز والفرنسيين ، وأقلقت راحتهم ، أكثر مما أخافتهم عمارات ضخمة وإدارات فخمة ، بل أكثر مما أخافتهم الجنود والبندود ، فالعبرة بالسكان لا بالمكان .

وهذا الشيخ محمد عبده يتأثر بباريس ، بما يطلع على شئونها ومعيشة أهلها . فيطيل شعر رأسه ويلبس الطربوش ويحتفظ بالجُبَّة والقفطان ، ولكن لم يكن له من الفراغ ما يتعلم فيه الفرنسية ، فمهمته تستغرق كلَّ وقته ، فهو وأستاذه وقليل

(١) الأمران : الشر والأمر العظيم .

(٢) انظر أغراض المجلة في ترجمة « جمال الدين » .

من الأتباع يحملون عبء التفكير والتحرير والتصدير، وتمهيد السبيل السرية والعقلية لوصول المجلة إلى أنحاء العالم الإسلامي، وتأسيس فروع مركزية لمساعدتها وانتشارها وتحقيق أغراضها.

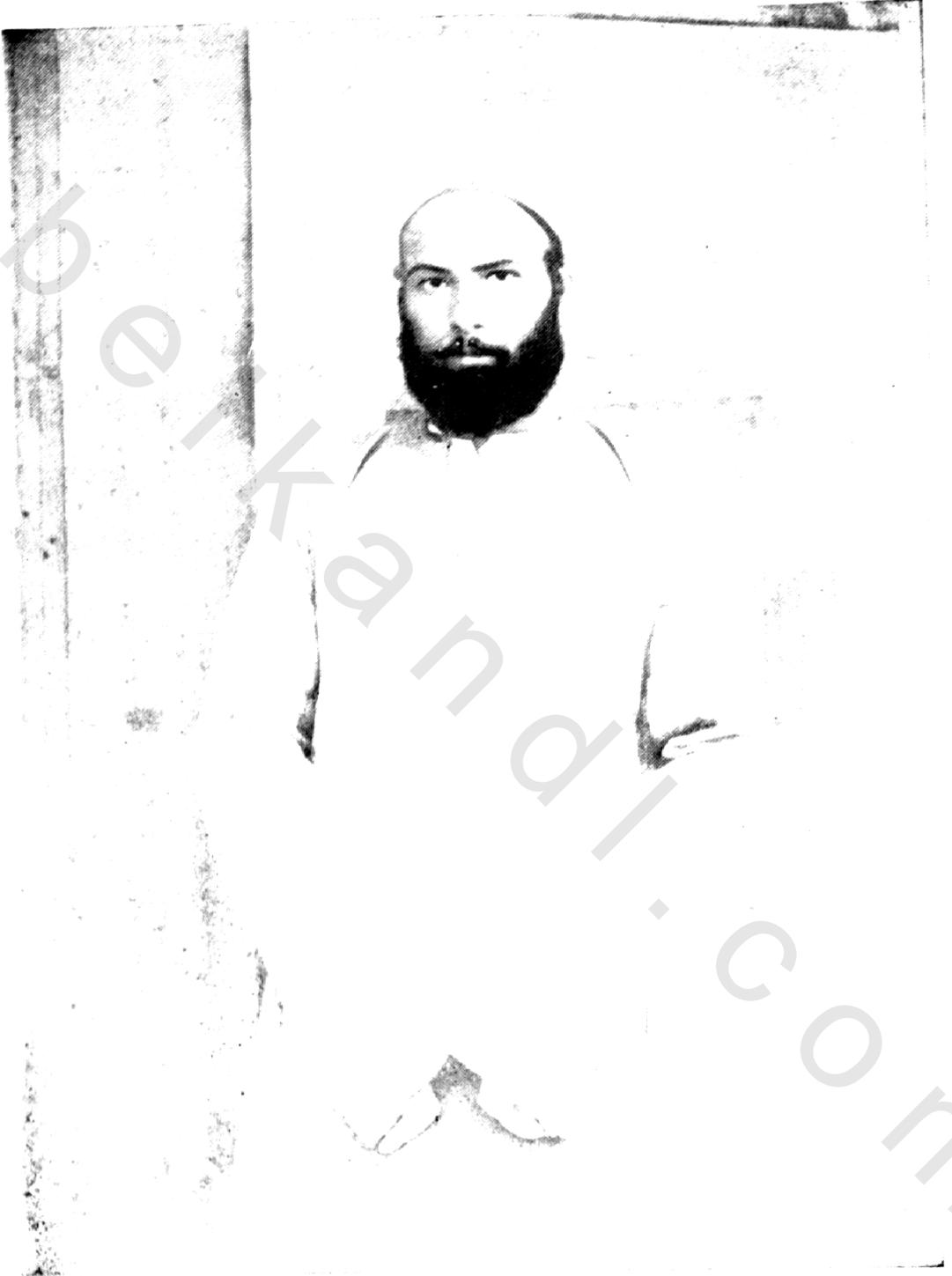
والقارىء للمقالات التي كان يحررها الشيخ محمد عبده في الوقائع المصرية ومقالات « العروة الوثقى » يرى الفرق الكبير بينهما في الاتجاه والغرض والأسلوب والحرارة.

كانت مقالاته في « الوقائع » تقصد إلى الإصلاح الاجتماعي في مصر وحدها بأسلوب هادئ، يغلب عليه العقل والتحفظ والتدرج، ومقالات العروة الوثقى تنظر إلى العالم الإسلامي كله على أنه وحدة، فإن ذكرت مصر أو الهند فعلى سبيل المثال، وكانت تقصد أول ما تقصد إلى مناهضة الاحتلال الأجنبي بجميع أشكاله، وتهدف إلى رفع نيره عن العالم الإسلامي كله عن طريق ثورة الشعوب، وبث روح العزة القومية بواسطة العقيدة الدينية الصحيحة، وخلق الأمل في النجاح مكان اليأس، وتوثيق الصلات بين الشعوب الإسلامية كلها لتعاون على دفع أذى الأجنبي عنها، والتخلص من المستبدين الظالمين من أهلها، وتأسيس الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية على أسس أصول الإسلام الأولى : من إعداد السلاح ومقاومة القوة بالقوة، وطرح العقائد الدخيلة التي تدعو إلى الاستسلام مثل رمى العبء كله على القضاء والقدر، وإفهام الشعوب أن الإسلام في شكله الصحيح لا يتنافى مع المدنية، ولا يعوق التقدم والوصول إلى ما وصلت إليه الأمم الأخرى.

هذه المعاني القوية أكتسب أسلوب الشيخ محمد عبده قوة لا تجدها في « الوقائع ». ثم إننا نلاحظ أن « الشيخ » متى اتصل بالأستاذ فنارى من ناره وناثر من ثورانه، وعاطفي من حرارة وجدانه؛ فإذا انفصل عنه عاد إلى حكم



الشيخ محمد عبده في سويسرة واضعاً يديه على ابن وبنت لأستاذه السويسري



الشيخ محمد عبده في لندن سنة ١٢٨١

العقل والمنطق وزالت ثورته ، وخفت حدته .

وحدث في هذه الأثناء أن سافر الشيخ محمد عبده إلى « لندن » وكانت الثورة المهدية في السودان ، والإنجليز لم يثبتوا أقدامهم في مصر ، ووعودهم بالجلاء تتابع ، فلعل في رجال الإنجليز من أعضاء البرلمان من يُصغى إلى صوت الإنسانية وحق البلاد في الاستقلال ، فكان الشيخ محمد عبده — وقد عاد إلى عمامته — في البرلمان الإنجليزي يحدث أعضائه ، ويحدث رجال السياسة ، ورجال الصحافة — وهو في كل ذلك وطني مصري مخلص يطلب الجلاء والوفاء بالوعود ، ويوضح حقيقة الحال في الثورة العربية ودسائس الأوربيين فيها ، وكرهية الشعب للحكم الأجنبي ، وأنهم يفضلون استبداد الحكام من أهلها على الأجنبي من غيرها مهما كانت سيرته ، ويهدد بأن المصريين سوف لا يدفعون الضرائب ، وسيجعلون حكم الأجانب مستحيلاً ، سواء أكانوا إنجليزاً أم فرنسيين ، ويقرر أن انتشار الأمية في مصر لم يفقد أهلها الشعور الطبيعي برغبتها أن تحكم نفسها ، والإسلام الذي بين جوانحها محرّم عليها الاستسلام لغيرها .

ولكن متى خضعت القوة للحق ، ومتى ضحيت المصلحة القومية للإنسانية ،

ومتى عفا الأسد عن فريسته ؟

لقد عاد الشيخ محمد عبده إلى باريس يائساً ، وزاد الأمر سوءاً أن نجحت إنجلترا في اضطهاد « العروة الوثقى » والتضييق عليها ، فاحتجبت بعد ظهور ثمانية عشر عدداً منها في ثمانية أشهر ، وسافر السيد جمال الدين إلى فارس ، وعاد الشيخ محمد عبده إلى بيروت ، فإن كانت « العروة الوثقى » لم تخلق أشجاراً كما كانا يؤملان ، فقد نثرت بذوراً تنتظر الجوال الطبيعي والغذاء الصالح لتبدأ في النمو وتكون بعد أشجاراً وإن انتفع بها الأعداب .

يسكن الشيخ محمد عبده بيروت فأنقطع عنه مدد الثورة والهياج السيامي

الذي كان يُمدّه به السيد جمال الدين ، وعاد إلى طبيعته من ميله إلى الإصلاح العقلي والديني وتجنب السياسة ، وكانت الظروف حوله تدعو إلى ذلك ، فقد فشلت الثورة العرابية ، وأقفلت جريدة العروة الوثقى ، ولم تنجح مفاوضاته مع الإنجليز ، وهو الآن يقيم في بيروت ، حيث الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد ، الذي يخنق الحرية ، ويملاّ البلاد بالجواسيس يُحصون على الناس أنفاسهم ،

لهذا كله كان الشيخ محمد عبده في بيروت عالماً ومعلماً فقط ، يملاً زمنه بالتأليف والتعليم ، شرح نهج البلاغة ومقامات بدیع الزمان ، وأخذ يدرّس تفسير القرآن في مسجدين من مساجد بيروت على الطريقة التي اتبعها بعدُ في مصر ، لا يتقيد بكتاب في التفسير خاص ، إنما يقرأ الآية من القرآن ويفسرها من عنده بما يختار من التفاسير وبما يجتهد ، ويستطرد في شرح أحوال المسلمين وتقدم حسب تلمه الآية .

ودُعِيَ للتدريس في المدرسة السلطانية ببيروت فأصلح برامجها ونقلها إلى درجة أرق بكثير مما كانت ، نقلها من شبه مدرسة أولية إلى شبه مدرسة عالية ، وشغل نفسه بالتدريس فيها أكثر الوقت ، فكان يدرّس التوحيد والمنطق والبلاغة والتاريخ الإسلامي ، والفقہ على مذهب أبي حنيفة ، واتخذ بيته ندوةً للحديث العلمي والأدبي والسّم المفيد ؛ وكان لبقاً في دروسه وأحاديثه ، يشتاقي إليها المسلم والنصراني .

وكان من آثار إملائه ودروسه في بيروت ما كان أساساً لما نشره بعد في مصر من « رسالة التوحيد » و « شرح البصائر » التصيرية في المنطق . وعلى الجملة فقد خلق في بيروت حركة علمية راقية استفاد منها كثير من أهلها . ولم ينس الجرائد ، فكان يكتب في جريدة « ثمرات الفنون » مقالاتٍ



الشيخ محمد عبده في بيروت سنة ١٢٨٣ هـ

تشبه تلك التي كان يحررها في الوقائع ، مثل مقالته في الدعوة إلى « النقد » والحث عليه ، وأنه أداة لتمحيص الآراء ، ومعرفة وجه الحق في الأفكار الخ .

والتفت إلى المصالح العامة للدول الإسلامية ، فوضع لأمتين في إصلاح التعليم الديني في مدارس المملكة العثمانية ، بمناسبة صدور إرادة سنية من السلطان عبد الحميد بتشكيل لجنة تحت رئاسة شيخ الإسلام لإصلاح البرامج في المدارس الإسلامية ، وقد رفع الشيخ محمد عبده إحداهما إلى شيخ الإسلام في الأستانة ، يرى فيها أن ضعف المسلمين سببه سوء العقيدة والجهل بأصول الدين ، وأن ذلك أضع أخلاقهم وأفسدها ، وأن العلاج الوحيد هو إصلاح التعليم الديني ، وقد رسم لذلك خطه .

ورفع لأمتة أخرى إلى والي بيروت تتضمن إصلاح سورية ، ووصف سوء حالها ، وتقسّم النزعات السياسية لها بانتشار المدارس الأجنبية فيها ، واقترح تعميم المدارس الوطنية ، وإصلاح برامج التعليم الديني والعناية به .

ومع انقطاعه للعلم وبعده عن السياسة لم يخل من متاعب ، بسبب حسد بعض الضعفاء الجبناء ، أو بسبب حدة مزاجه ، وكان إذا احتد جرح ، فاضطر إلى ترك التدريس في المدرسة السلطانية لما شعر بسوء جوها .

كانت مدة نفيه التي حكم عليه بها ثلاث سنوات . ولكنه مكث في المنفى نحو ست سنين ، لأن الأمر لم يكن حكماً بالنفى فقط ، بل كان أكثر من ذلك ، غضب الخديو توفيق عليه ، إذ كان من أهم في الثورة العراقية بجهره بخلع الخديو ؛ وربما كان هذا هو السبب الحقيقي في محاكمته دون غيره ممن اشتركوا في الثورة العراقية مثل اشتراكه . وقد كرر هذا المعنى أثناء حديثه وهو في إنجلترا مع بعض مكاتبى الجرائد ، فقد سأله مكاتب « البول ميل جازيت » عن رأيه في الخديو ، فقال الشيخ : « إن توفيق باشا أساء أيضاً أكبر إساءة ، لأنه مهد

لدخولكم بلادنا ، ورجل مثله — انضم إلى أعدائنا أيام الحرب — لا يمكن أن نشر نحوه بأدنى احترام ، ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ذنبه — إننا لا نريد خَوَنَةً ، وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية » .

لهذا كان من العسير عودته إلى مصر في عهد توفيق ، ولكن عادت وزارة رياض باشا إلى الحكم وسعى عند الخديو جماعة في العفو عنه ، ومنهم الأميرة نازلي ولم تكن تعرفه ولكنها سمعت عنه كثيراً من رجال مُنتداهها ومنهم سعد زغلول ، وكانت حسنة الصلة مقبولة الرجاء عند اللورد كرومر ، ومنهم الغازي مختار باشا ؛ وأفضلُ شفاعَةٍ كانت — بطبيعة الحال — شفاعَةُ اللورد كرومر ، وقد قال في كتابه « مصر الحديثة » : « إن العفو صدر عن الشيخ محمد عبده بسبب الضغط البريطاني » . وينسُبُ بعضهم الفضلَ الأول في العفو إلى مختار باشا ، ولكن المطلع على الأحوال في ذلك الوقت يعرف أنه ما كان الخديو توفيق يعفو إلا برضا اللورد كرومر أو ضغطه .

وهنا يصح أن نسأل : ماذا كان وراء الستار ؟ واللورد كرومر لا يُقدِّم على هذا لمجرد رجاء الأميرة نازلي ورجال نَدْوِيَّتِها ، وهو يعلم ما كان من الشيخ محمد عبده مع السيد جمال الدين في العروة الوثقى التي هاجمت إنجلترا أشد مهاجمة وعدتها أكبر خصم للمسلمين .

الذي يظهر لي أن أصدقاء الشيخ محمد عبده في مصر استوثقوا منه أنه إن عاد لا يشتغل بالسياسة العليا ، فقد جربها واكتوى بنارها ، ولم يُفد منها ما يرجو لأمتِه والعالم الإسلامي ؛ وإنما يعمل على الإصلاح الديني والنظم الدينية ، وهذا لا يضرّ موقف الإنجليز في مصر في شيء . وعلى هذا الأساس قبل اللورد كرومر شفاعَةَ الأصدقاء ، وضغط على الخديو توفيق ، فسمح له بالعودة ،

وسار الشيخ محمد عبده على النحو الذي سنبينه .

ونتساءل أيضاً : هل يلام الشيخ محمد عبده على هذا الموقف ؟

ونرى أيضاً أنه لو أعد نفسه ليكون زعيماً سياسياً يرمي إلى تحرير وطنه لكان موضع اللوم في هذه الخطوة ، وأعد ذلك تراجعاً . ولكن يظهر من تاريخ الشيخ محمد عبده كله أنه لا يجب السياسة بل يلعبها ويلعن مشتقاتها ، ولم يشتغل بالسياسة إلا حين دفعه التيار في الثورة العراقية ، أو حين كان تحت تأثير أستاذه السيد جمال الدين الناري المزاج في « العروة الوثقى » . أما هو فيرى في نفسه أنه معلم منير عقول ، مُفهم للحقوق والواجبات ، مصلح للعقيدة الإسلامية ، مدافع عن الإسلام . كان كذلك قبل الثورة ، وكان كذلك في بيروت ، فلم ينسكركم لمبادئه حين أنهم اللورد كرومر موقفه بواسطة أصدقائه . ولعل هذا هو سبب ما نلاحظه من فتور في العلاقات بين السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده من ذلك الحين ، و « كلُّ ميسر لما خلق له » .

\*\*\*

ماذا يصنع الشيخ محمد عبده في مصر وقد عاد إليها ؟ إن مصر التي يدخلها اليوم غير مصر التي تركها .

لقد أصبح كل شيء في يد الإنجليز ، لهم في كل نظرة من يستبد بالأمر فيها دون الناظر ، حتى الداخلية وحتى التعليم وحتى الأزهر والمحاكم الشرعية . النظار قطع شطرنج يلعب بها الإنجليز ، والمديرون في البلاد خاضعون للمفتش الإنجليزي ، والعميد الإنجليزي مقصد كل ذي حاجة ، والمقرَّب إلى الإنجليز مقبول الشفاعة ، مقضى الحاجة ، واسع الجاه ، والمبعد عنهم معطل الحوائج ، مضطهد ، محارَب حتى في أدق الأمور — والخديو توفيق مسالم يأخذ بنصائح الإنجليز حتى في الجلاء عن

السودان ، ويقول لمـ كاتب التيمس : « إن أمامي واحدة من ثلاث خطط في الحكم ، إما اتباع نصائح إنجلترا ظاهراً والعمل على محاربتها في الخفاء ، أو إطاعتها إطاعة عمياء ، أو مناقش نصائحها بكل صراحة وأبدى آرائي فيها ، فإذا قبلت فيها ، وإلا فأنا مضطر لقبولها ؛ وقد أتبعْتُ في الحكم الطريقة الأخيرة ، فرُميتُ بالضعف ، فهل كان يمكنني أن أقاوم إلى النهاية ؟ » .

إن أهم غرض للشيخ محمد عبده كان إصلاح العقيدة والمؤسسات الإسلامية كالأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية . ومثل هذا الإصلاح لا بد أن يعتمد فيه المصلح على سلطة قوية تحمي ظهره ، وإلا كان كأي عالم من علماء الأزهر لا تُسمع له كلمة ، ولا يؤوبه له بدعوة ، فعلى أي السلطات يعتمد ؟ .

أعلى الخديو توفيق وهو يكرهه كل الكراهية ، ولو ترك له الأمر ما أعاده من منفاه ؟ ثم هو ليس له من الأمر شيء ، ولكنه على كل حال السلطة الشرعية ، والمؤسسات الدينية التي يريد إصلاحها أمسُّ به .

أم على الإنجليز وفي يدهم القوة ، ولو عاونوه في الإصلاح لتحقق بفضل نفوذهم ، ولكن أليس من المهانة أن يُستعان على ذلك بالأجنبي المحتل للبلاد ؟ ولو استعان بهم لظلمت دعوته بظلال من وحى الأجنبي ، وظن الناس الظنون بكل ما يدعو إليه ؛ ولكن هم الذين لم الفضل في دخوله مصر ، ولولاهم لظل مبعداً ؛ ثم هم لا يمانعون في الإصلاح الديني والمؤسسات الدينية ، إذ هذا الإصلاح لا يؤثر في مراكزهم في مصر . فما الضرر من الاستعانة بهم لتحقيق الغرض ولوائهم وكرهه ؟ .

أم يعتمد على الأمة وهي ضعيفة منهوكة ممزقة ، لم يتكون فيها وعى قومي ، ولا شعور بالعزة ، وكبرائها أسوأ ما فيها ! ثم إن إصلاح العقيدة والمؤسسات الدينية يهيجها — كما هو الشأن دائماً — لأنها ألفت الفاسد حتى لم تشعر بفساده

فإذا دُعيتُ إلى الإصلاح هاجت وماجت ورمت الداعي بالكفر والزندقة ، فكيف يعتمد عليها في الإصلاح ؟ .

اعتقد أن هذا وأمثاله هو ما كان يدور في ذهن الشيخ محمد عبده ويحيره ، وهو في طريقه إلى مصر عند عودته .

وأظن أنه وضع قراراً في أعماق نفسه بمسألة الخديو ما استطاع ، والاستعانة بالإنجليز فيما ينوي من إصلاح .

يدل على هذا أنه وضع تقريراً بعد عودته عما يراه في وجوه إصلاح التعليم في مصر ، ورفعها إلى اللورد كرومر ، لا إلى غيره ، تسليماً منه بأنه القوة الفعالة . ويدل عليه سيرته الواقعية ؛ فقد ظل طول حياته بعد عودته يسالم الإنجليز ويتعاون معهم ، وهي سياسة لها منطقتها ؛ فقد كان يرى أن جلاء الإنجليز لا يأتي إلا من طريق استنارة الشعب وفهمه لحقوقه وواجباته ، وغضبه من الاعتداء على حقوقه ، وهتمته في أداء واجباته ، ومصر لم تكن تبلغ هذا المبلغ ، ووسيلة إصلاحها التعليم — ثم يرى أن مسألة مصر لا تُحَكَّمُ بمواجهة مصر لإنجلترا ، بل بالحالة الدولية العامة ، والتفات الدول إلى أن مصلحتها في استقلال مصر . وإلى أن يحدث ذلك يجب على القادة أن ينبروا الشعب بالتعليم ولا يجعلوا كلَّ همهم الاشتغال بالسياسة ؛ فهو ينقُد جمال الدين لأنه صرف كل جهوده في السياسة دون الإصلاح الداخلي للشعوب ، وينقُد الأميرة نازلي في أنها انصرفت إلى الجهود السياسيَّة ولم تؤسس جمعيةً للنهضة النَّسْويَّة — مثلاً — وإذا حضر مجلسها لم يجب أن يتكلم في السياسة ، وهي لا تحب إلا أن يتكلم في السياسة .

وكان في مصر رأيان : رأى يقول إنه لا أمل في الإصلاح الحقيقي إلا بزوال الاحتلال أولاً ، ورأى يرى أن الإصلاح الحقيقي الداخلي هو وسيلة الجلاء ، وعلى الرأي الثاني كان الشيخ محمد عبده وأصحابه ، وعلى الرأي الأول كان مصطفى كامل

وأصحابه ، وبينهما حرب عوان ، يتهم الأولون الآخرين بالرؤونة ، ويتهم الآخرون الأولين بالرجعية والضعف .

وطبيعي أن يكون الزعماء السياسيون من الرأي الأول ، والمصلحون الدينيون والاجتماعيون من الرأي الثاني . وفي الحق أن السيد جمال الدين كان زعيما للناحيتين ، أو على الأقل اعتقد أن رسالته إصلاح العقيدة الدينية والإصلاح السياسي بمهاجمة الاحتلال الأجنبي ، ولكلها لم يجتمعا إلا في يده ؛ ثم من بعده دعا دعاة إلى هذا ودعاة إلى ذلك ، فخلّفه في مصر في إصلاح العقيدة الشيخ محمد عبده وتخلّى عن السياسة ، وخلّفه في السياسة فقط عبد الله نديم ، ثم مصطفى كامل ، ثم سعد زغلول .

ومن الإنصاف — إذا قومنا الشيخ محمد عبده في هذه الناحية — أن نراعي كل ظروفه وكل الأحوال في زمنه ، فلم يكن الشيخ محمد عبده بدعاً في هذا الاتجاه ، فثله في ذلك كان السيد أحمد خان المصلح العظيم في الهند ، فقد رسم خطته أن يصلح الشؤون الاجتماعية والدينية لمسلمي الهند مع مسألة الإنجليز ، حتى لا يماربوه في إصلاحه .

ولما اقتنع بهذه النظرية سار عليها قولاً وعملاً ، وقد استفتى مرة في الاستعانة بالأجانب فكان من فتواه : « قد قامت الأدلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين على ما فيه خير ومنفعة للمسلمين ، وأن الذين يعمدون إلى هذه الاستعانة لجمع كلمة المسلمين وتربية أيتامهم وما فيه خير لهم لم يفعلوا إلا ما اقتضته الأسوة الحسنة بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأن من كفرهم أو فسقهم فهو بين الأمرين : إما كافر أو فاسق ؛ فعلى دعاة الخير أن يجتهدوا في دعوتهم ، وأن يمتصوا على طريقتهم ، ولا يحزنهم شتم الشائمين ، ولا يغيظهم نوم اللائمين ، فإله كفيل لهم بالنصر إذا اعتصموا بالحق والصبر » .

فهو في هذه الفتوى يعبر عن مذهبه ويبرر موقفه . والقارئ لهذه الفتوى  
يشعر بما يشعر الأستاذ به من سراحة وغيظ .

على كل حال هذا مفتاح لفهم سياسته ، وما لاقى في حياته من عناء ،  
وفي إصلاحه من دسائس ، وفي شخصه من تهم ، وفي طريقه من عوائق .

\*\*\*

عاد الشيخ محمد عبده وهو يأمل أن يكون ناظراً لدار العلوم أو أستاذاً فيها ،  
فيميد فيها ما بدأ ، وينير أذهان المعلمين لينيروا أذهان الطلبة ، ولكن لم يرض  
الخدوي توفيق بذلك ، لأنه إذا فعل أوصل التيار الكهربائي إلى الأسلاك ، وهو  
تيار بغيض إليه ؛ ولعل الإنجليز أيضاً لم يرضوا ، ولو شاءوا لضغطوا . فعين قاضياً  
أهلياً في محكمة بنها ثم الزقازيق ثم عابدين ، ثم عين مستشاراً في محكمة الاستئناف ؛  
ولم يكن هذا غريباً ، فقد كان يعين في القضاء أي مثقف ممن تمرن على المحاماة  
ولم تكن معه شهادة ، أو ممن تخرج في دار العلوم أو نحو ذلك .

ورأى نفسه — وهو قاض — في بيئة من القضاة يدون بمعرفتهم للقوانين  
الفرنسية وشروحها ، فأبت نفسه الطمّوح أن يكون أقل شأنًا منهم ، فبدأ يتعلم  
اللغة الفرنسية وهو قاض في عابدين ، وسنه إذ ذاك نحو الأربعين ، وجدّ فيها حتى  
بلغ شأواً<sup>(١)</sup> لا بأس به ، وقد أطلعه تعلمها على ميدان فسيح استفاد منه كثيراً مما  
قرأ في اللغة الفرنسية ، وقد ترجم كتاب التربية لسبنسر بعد أن نقل من الإنجليزية  
إلى الفرنسية ، وكان يكمل تعلمه الفرنسية برحلته إلى سويسرا وفرنسا ، ويستمع  
إلى بعض المحاضرات ويقابل بعض العلماء ، وكما يقول هو : ليجدد نفسه .

وقد امتاز في قضائه بتحرّيه الحق وتقديره العدالة أكثر مما يقدر نصوص  
القانون ، ويرجع هذا إلى سعة أفقه ودراسته للشريعة الإسلامية وعدم تشكّله

(١) الشاؤ : الغاية .

تماماً باقالب القانونى ، ولذلك شكنا بعض زملائه من أنه يتحرر من النصوص القانونية ، ولما سئل فى هذا اعترف به ودافع عن وجهة نظره .

\* \* \*

مات الخديو توفيق ، وتولى الخديو عباس سنة ١٨٩٢ وقد عاد من فيينا ممثلاً حاسه وغيره وتصميا على مناهضة الاحتلال ، وأخذ خطة جديدة غير خطة أبيه المستسلمة ، والتف حوله بعض شباب مصر المتحمسين ، وبقايا رجال الثورة العرابية الذين تألموا من الهزيمة ولم يياسوا من تغير الحال ، ووراءهم تركيا وفرنسا تشجعانهم على حركتهم ، وقد ضاع نفوذها على يد توفيق ، فأثلاً عودته على يد عباس .  
وبدأ الخديو عباس بتغيير رجال الحاشية وإحاطة نفسه بما يتفق وسياسته ، وبدأ يتعرف أحوال مصر بنفسه ، ويتصل بالموظفين والأعيان ، وأحياناً يرأس مجلس النظر ، وبدأت إنجلترا تشعر بما سيصادفها من متاعب على يد هذا الشاب ، وتتنهز الفرص لإحراجه .

رأى الشيخ محمد عبده أن آمال عباس فى الإصلاح يجب أن تستغل ، ووضع خطة أن يتقرب إليه ويوثق الصلة به ، ويحسن إليه برناجه فى الإصلاح مع حسن علاقته أيضاً بالإنجليز ، فيكسب السلطتين ، ويعتمد عليهما فى تحقيق أغراضه الإصلاحية ، ويتم له ما يريد . ولكن ستيبين الحوادث أن هذا خيال ، وأن الجمع بين صداقة السلطتين كالجمع بين الماء والنار ، وأن إرضاء إحداهما إغضاب للأخرى لا محالة (١) .

على كل حال تقرب محمد عبده من عباس بواسطة محمد ماهر باشا ، ورحب الخديو بذلك إذ يسره أن يجمع حوله أقوياء الرجال ، وتقابلاً مراراً سرّاً وجهرأ ، وحسن إليه الشيخ محمد عبده أن يتجه إلى إصلاح الشعب الثلاث المتصلة بالدين

(١) لامحالة : لاجبة .

والتي لاشان للإنجليز بها ، والتي في صلاحها صلاح للأمة ، وتقوية لمركز الخديو .  
إذ في ذلك برهان قوى على أنه إذا وكل إليه الأمر أحسن خيراً مما يحسن الإنجليز  
في إدارتهم — وهى : الأزهر ، والأوقاف ، والمحاكم الشرعية . وليكن البدء  
بالأزهر ، فاقنع الخديو بذلك ، وكلفه تقديم تقرير ، ففعل واعتمد ، وصدر القرار  
بتشكيل مجلس إدارة للأزهر برئاسة الشيخ حسونة ، وفيه الشيخ محمد عبده ،  
والشيخ عبدالكريم سلمان ، مندوبين عن الحكومة ، واعتمده مجلس النظارة سنة  
١٨٩٥ ، وصدق عليه الخديو ، وأتيحت الفرصة للشيخ محمد عبده لإصلاح الأزهر  
الذى تمناه من يوم أن كان مجاوراً ساخطاً على سوء حاله .

يا لله وإصلاح الأزهر ! ما حاوله أحد من قبل ونجح ، ولا الشيخ محمد عبده ،  
لأن كل المحاولات كانت تنجبه إلى هامش الموضوع لا أساس الموضوع ، وكانت  
عن سبيل استرضاء أهله والخوف من أى قلق واضطراب ، والأزهريون كان  
يتزعمهم طائفة ألفت القديم حتى عدته ديناً ، وكرهت الجديد حتى عدته كفراً ،  
وعاشت في المغارات فلم ترضوا ، وأفت عمرها في فهم لفظ ، وتخرج جملة ،  
وتأويل خطأ ، فلم تر حقائق الدنيا فإذا أتى مصلح سم أهله الجرح حوله ، واحتتموا  
بالدين يخيفون به الحكومة ، ويكسبون به عامة الشعب ، وخنقوا الطائفة القليلة  
من شبابه النازعين إلى التجديد وحرصوا على مراكرهم أن يكتسحها الإصلاح  
وجاههم أن ينتقل إلى يد المصلحين ، وبجانهم طائفة أخرى تؤمن بالقديم عن  
صدق وإخلاص ، ولكن عن ضيق أفق ، وغفلة عن الحق ؛ هم من جنس مقال  
أهل الحديث عن بعضهم : «تطلب دعوتهم ، ولا تقبل شهادتهم» ، فتنجم كل  
هذه العوامل ، فيضطّر المصلح — أخيراً — إلى الانسحاب إن غضب ، أو المدارة  
والمسالمة والرضا بالموجود إن لم يغضب . وتضطّر الحكومة أن تتخلى عن إصلاح  
الأزهر حبا في السلامة ، وتتركه يأكل بعضه بعضاً ، وتنشئ بجانبه المعاهد لعلى

اللغة العربية والقضاء الشرعي، لتستطيع تنظيمها والإشراف عليها، إذ أعجزها الإشراف على الأزهر، ومع هذا لا يخلو الجو من شغب يقلق بال الحكومة الحين بعد الحين، بين الأصل والفرع، وما يحتضنه الأزهر من طلاب وعلماء، وما تحتضنه الحكومة، وتترك ذلك للزمن، والزمن لا يحل المشكل، لأن المشكل لا يحل إلا بالعلاج الحاسم.

أخذ الشيخ محمد عبده يحرك مجلس الإدارة للإصلاح وبدأ بالمسائل الشكلية من زيادة رواتب المدرسين وتنظيمها، ووضع لأئمة لكساوى التشریف، وتنظيم الجراية، ومساكن الطلبة، والإشراف الصحى عليهم، والامتحان. فلما تعرض لشيء من الأساس، وهو ماذا يدرس فى الأزهر، واختيار الكتب، وطرق التدريس، وبرامج الدراسة، زادت المقبات فى سبيله، واضطراً أخيراً إلى الانسحاب. فكانت معالجته سطحية لا علاجاً لأصل الداء. وفى الحق أنه لم يكن يمكنه فى مثل ظروفه غير ذلك.

\*\*\*

ظل الشيخ محمد عبده يعمل فى القضاء ويحرك مجلس إدارة الأزهر للإصلاح حتى سنة ١٨٩٩، وحدث أن كثرت الشكوى من المحاكم الشرعية وقضاتها، ففكر مستشار الحقانية الإنجليزية فى إلغائها وضمها إلى المحاكم الأهلية، ولكن حسبوا حساباً لهياج رأى العام، فأرادوا أن يفعلوا ذلك تدريجاً، وذلك بتعيين مستشارين من محكمة الاستئناف عضوين فى المحكمة الشرعية العليا، فلم يرض بذلك جمال الدين أفندى قاضى مصر التركى، ولا الشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية. وعرض المشروع على مجلس شورى القوانين فرفضه، ووقف الشيخ حسونة موقفاً شديداً صلباً انتهى بتركه المنصبين، ووقف المشروع. وكان الشيخ محمد عبده يطمح فى أن يعين مكان الشيخ حسونة فى المنصبين،

فيقبض على ناصية الأزهر ويتمكن مما ينوي من إصلاح ، ولكن أسرع الخديو  
فعين الشيخ عبد الرحمن القطب النواوي للمشيخة ، والشيخ محمد عبده للإفتاء ،  
فأثر ذلك في نفس الشيخ محمد عبده وآمن بأن الخديو لا يطمئن إليه في باطن  
نفسه ، ولم يمض نحو شهر حتى مات الشيخ القطب وعين مكانه الشيخ سليم  
البشرى ، فاعتقد الشيخ محمد عبده أن إصلاح الأزهر قد تعقد بهذا الوضع ، فلم  
يكن يطمئن إلى الشيخ البشرى اطمئناته إلى الشيخ حسونة ، ويراها لا يؤمن  
بإصلاح ، ويدارى ولا يصارح ، ويعمل بإشارة السلطة لا بوحى من نفسه ؛ ومع  
هذا فنصب الإفتاء خلع على الشيخ محمد عبده وجاهة دينية ممتازة ، وهو نفسه  
قد خلع على المنصب بشخصيته إجلالا واحتراما ، وزاد في ذلك تعيينه في السنة  
نفسها عضواً دائماً في مجلس شورى القوانين .

وظلت العلاقة بينه وبين الخديو عباس حسنة في ظاهر الأمر ، فالخديو  
يستشيره إذا تعقدت الأمور بينه وبين الإنجليز ، كاستشارته له عندما أرادوا تعيين  
قاضٍ مصرى بدل القاضى التركى ، وكان الخديو لا يرى هذا الرأى لأنه يضعف  
صلة مصر بتركيا ويمكن من سلطة الإنجليز ؛ وكاستشارته له في مسألة « ايون فهمى »  
الأرمنى ، وكان قد قبض عليه الخديو وحبسه في قصر رأس التين لاتهامه بتزوير  
ختام باسم رئيس كتاب « يلدز » وأراد اللورد كرومر أن يفتش عنه في القصر ،  
ورأى الخديو أن هذا منتهى الإهانة ، وقد أشار الشيخ محمد عبده على الخديو بما  
أنقذه من الموقفين .

كان الشيخ محمد عبده إلى هذا الحين يتفق ورأى الإنجليز في أن الخديو ليس  
له أن يستبد بتصرف الأمور ، أو أن يكون حكومة داخل حكومة ، وأن ليس  
من مصلحته ولا مصلحة مصر أن يحارب جماعة تركيا الفتاة خدمة لتركيا ، وفيهم  
قوم أحرار لم يرضهم ظلم عبد الحميد ولا عسفه ولا استبداده ، وأن من الخير للخديو

أن يوجه أنظاره إلى ترقية الشئون المصرية كالتهليم وإصلاح المحاكم الشرعية وإصلاح الأزهر ، فهو بذلك يخدم بلاده .

والشيخ محمد عبده يصدر في هذا عن مزاجه وطريقته في التفكير والإصلاح ، ويتكلم في ذلك في مجالسه الخاصة ، فيبلغ الخديو فيسرها له .

ولكن حدث أن خلا مكان لكسوة التشريفة في الأزهر ، فأراد الخديو أن يشغله الشيخ محمد راشد مفتي المعية ، ولم يكن تنطبق عليه اللائحة الموضوعية ، فأوعز الشيخ محمد عبده بعدم تنفيذ ذلك الأمر وإعطاء الكسوة للمستحق ، وزاد الطين بلة أن العلماء لما اجتمعوا عند الخديو في التشريفات كلم الخديو شيخ الجامع في غضب وتوبيخ ، فرد الشيخ محمد عبده في حدة : « إذا شاء أفندينا أن تكون كساوي التشريف بمقتضى إرادته الشخصية فليصدر بذلك قانوناً آخر ينسخ هذا القانون » فلما سمع الخديو هذا الرد احمراً وجهه ووقف ، إيداناً للحاضرين بالانصراف . وآلى<sup>(١)</sup> على نفسه أن يخرج المفتي ويكيد له حتى يخرج من منصبه ، وينتقم من فعلته .

ثم أعقب ذلك وقوف الشيخ محمد عبده وحسن باشا عاصم في أرض يريد الخديو استبدالها من الأوقاف ، ورأيا أن هذا العرض ليس في مصلحة الوقف ، وجهلا مجلس الأوقاف الأعلى على رفض هذا الاستبدال إلا إذا دفع للوقف عشرون ألفاً فرقاً بين الصفتين .

انكشف الغطاء ، وظهر المراءى ودبرت المؤامرات ودست الدسائس ، وكلما أمعن الخديو في ذلك اضطرَّ الشيخ محمد عبده إلى كثرة الاتصال بالإنجليز ، وكلما اتصل زاد غضب الخديو ، حتى لقد تم الخديو بعزله من الإفتاء ، فصرح اللورد كرومر : « إنه لا يوافق على عزله من منصب الإفتاء ، مهما كانت الأحوال ، ما دام موجوداً » .

(١) آلى : أنسم .



الشيخ محمد عبده في تونس

والشيخ محمد عبده جاداً في إصلاح الأزهر والنهوض بالجمعية الخيرية الإسلامية لنشر التعليم وإعانة المنكوبين ؛ وهو رسول السلام بين مجلس الشورى والحكومة ، وداعى المصالحة فيما تعقد من الأمور ؛ يكسب من الإنجليز بقدر ما يستطيع ، وهو موضع ثقة المجلس وثقة الحكومة وثقة الإنجليز ، يستشرونه في كثير من الأمور فيشير بما يعتقد الحق ؛ ثم هو ينير الخاصة بما ينشر من أفكاره في الدين والإصلاح الاجتماعي والأخلاقي والسياسي على مذهبه .

وهو يحارب أشد محاربة وأعنفها من جهات متعددة . الخديو عباس يتخذ السيد توفيق البكري وغيره وسيلة للإفساد بينه وبين رجال الأزهر وتحريض أعضاء مجلس الإدارة بالأزهر على الاستقالة حتى يُجَلَّ محلهم من يكرهون الشيخ محمد عبده ويقفون في سبيله . وكثير من شيوخ الأزهر يخاصمون لأنه يهدم قديمهم وإفهم ، ويطلع عليهم بجديد لم يأنفوه ، ويشيعون بين العامة كفره وزندقته .

والحزب الوطني — وعلى رأسه مصطفى كامل — يحاربه ويرميه بالروق من الوطنية ، لأنه يشايح الإنجليز ويتخذهم أعوانه ؛ وتكتب التقارير السرية ضده للاستانة ، فإذا سافر إليها استقبل استقبالاً سيئاً ، وعملت التدابير لإهانتته لولا لطف الله .

والجرائد الهزلية تشهرُّ به أشنع تشهير ، إما بإعاز من خصومه وقبض الثمن منهم ، وإما مجارة للعوام وأشباههم باسترضائهم لترويج جرائدهم . في كل يوم حادثة ، وفي كل ميدان موقعة ، وفي كل جريدة ذكر ، وفي كل مجلس مناظرة بين الاتهام والدفاع ، واسم الشيخ محمد عبده على كل لسان ، وعيسته عذاب في عذاب ، وهو لا تفتُر قوته ، ولا تجبو عزمته ، وإن كان كل فلك يهدُّ في أعصابه ، ويهدم من كيانه .

لقد تلقى المفتي سؤالي من بعض مسلمي الترنسفال ، وهما :

(١) بقر يضرب على رأسه بالبلطة حتى تضعف مقاومته ، ثم يذبح قبل أن يموت بدون تسمية الله عليه ، فهل يجوز أكل لحمه ؟

فأفتى الشيخ بحلها ، فقامت عليه قيامة العلماء يقولون إنها محرمة لأنها هي الموقوذة التي حرم الله أكلها ، والشيخ يقول إن الموقوذة هي ما ضربت بشيء غير محدد كالحجارة والخشب حتى ماتت ، وهذه ذبحت قبل موتها .

والسؤال الثاني : يوجد أفراد في هذه البلاد (الترنسفال) يلبسون البرانيط لقضاء مصالحهم وعوّد للفوائد عليهم ، فهل يجوز ذلك أو لا ؟ .

فأفتى أيضاً بالجواز وقال : « أما لبس البرنيطة إذا لم يقصد فاعله الخروج من الإسلام والدخول في دين غيره فلا يعدّ مكفراً ، وإذا كان اللبس حاجة من حجب الشمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يُكره كذلك . »  
فهيّجت عليه الجرائد كجريدة الظاهر وجريدة اللواء .

وزاد خصومه وقاحة ، فلفقوا صورة شمسية له مع بعض نساء الإفرنج وحملوها للورد كرومر ، وأفهموه أن هذا في عرف المسلمين لا يجوز صدوره ممن يتولى منصب الإفتاء ، فلم يأبه لقولهم . وصورته الجرائد الهزلية بصور شنيعة ، وحكّم على أصحابها بالحبس .

وهكذا لم يتورع خصومه أن يحاربوه بأسفل الوسائل ، وكان بعض هذا يكفي لمدوله عن جهاده ، وكان بعض أصدقائه كسعد زغلول وقاسم أمين يعيّنون عليه إلحاحه في إصلاح الأزهر ، مع أنه غير ممكن بهذا الوضع ، وهو — مع كل هذا — مصرّ على المضي في عمله تشدّه الخصومة ، ويأرق بعض الليالي مفكراً في وسائل الإصلاح ويقول : إن وجداني الديني لا يرضى بالصمت عن المفسد .  
وآخرون من خلصائه كانوا يعيّنون عليه عداوه للخديو على هذا الوجه ، ويرون أن الأجدربه أن يفضّ النظر عن هفواته ، ويقولون : ماذا عليه لو أعطى

كسوة التشريف لغير مستحقها، أو تساهل في استبدال الوقف، ثم كان ثمن ذلك أن تطلق يده في الإصلاح كما يريد، وحينئذ يجد من الخديو كل عون ولكن فاتهم أن الطبيعة تأتي أن تخلق من عليّ معاوية، أو أن تجعل من عُمرَ عُمرًا.

وعابوه أنه نظر إلى الخديو عباس من جانبه الأسود، وهو جشعه المادى ووسائله في ذلك، ولم ينظر إلى جانبه الأبيض وهو إباؤه الاستسلام للمحتلين، وتشجيعه الحركة الوطنية وتغذيتها وتنميتها. بل إن الشيخ محمد عبده كان يناهض أيضاً دُعاة الحركة الوطنية، ويرميهم بالتهوُّر، ويقنع في آماله الوطنية بالقليل، كما يدل عليه كتاباه اللذان نشرهما بعد موته، وكان قد أرسلهما إلى صديقه مستر « بلنت » يشرح فيهما مذهبه في الإصلاح السياسى، وفيهما قناعة في السياسة لا ترضى الوطنيين، وقد أثاروا نفوس الخديو والوطنيين وحتى بعض المعتدلين.

ولكن — مهما كان الأمر — فإن العظيم يجب أن يقدر من جميع جوانبه لا من جانب واحد، وكان الشيخ محمد عبده مصلحاً دينياً ومصلحاً اجتماعياً ومصلحاً للغة والأدب، وشخصية بارزة في التفكير، وأخيراً سياسياً. فإن هو لم يوفق في سياسته فهذا لا يقلل من نواحيه القيمة الأخرى. نعم يسقط الرجل في السياسة أن يشتري بمال أو يبيع ذمته لمنصب، ولكننا نجزم أن الشيخ محمد عبده كان وفياً لأمة مخلصاً نزيهاً، يسلك هذا المسلك السياسى عن عقيدة وتقدير للمصلحة، ويجتهد أحياناً، فيخطئ وتحمله الظروف القاسية أحياناً على ما يكره.

والحق أن كثيراً من شيوخ الأمة كانوا في ذلك الوقت على مثل رأيه السياسى، كسعد باشا زغلول، وفتحى باشا زغلول، وحسن باشا عاصم،

ومحمود باشا سليمان وغيرهم من رجال حزب الأمة ، ولكنه هوجم من هذه الناحية أكثر مما هوجوا ، لأن الخديو عباس كان يؤأب عليه أكثر مما يؤأب عليهم ، ولأن الناس اعتادوا أن يرؤا رجال الدين بعيدين عن السياسة وخاصة مع المحتلين . في سنة ١٩٠٥ كان الأزهر هادئاً وعلى رأسه السيد على الببلاوى ، وكان رجلاً يرتاح إلى الشيخ محمد عبده ويرتاح محمد عبده إليه ، والأمر سائرة سيراً طبيعياً ، فظهرت فجأة حركة تدعو إلى الشعب وتشكو من شيخ الأزهر ومن مجلس الإدارة ، وكان القائمون بها من المتصلين بالخديو ، على أثر رفض الشيخ محمد عبده وحسن عاصم استبدال الوقف الذى أشرنا إليه — وعلى أثر هذا الشعب استقال السيد على الببلاوى ، وعين الخديو عباس الشيخ عبد الرحمن الشربيني ، وهو ممن لا يستطيع الشيخ محمد عبده العمل معهم لرجيمته وجوده . وخطب الخديو في حفلة الإنعام بالحلعة على الشيخ الشربيني خطبة تدل على الغيظ الشديد من الشيخ محمد عبده وصحبه ، قال فيها : « إن الأزهر أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية إسلامية ، تشرع علوم الدين في مصر وجميع الأقطار العربية . ولقد كنت أود أن يكون هذا شأن الأزهر والأزهريين دائماً ، ولكن مع الأسف رأيت فيه من يخلطون الشعب بالعلم ، ومسائل الشخصيات بالدين ، ويكثرون من أسباب القلاقل . . . وأول شيء أطلبه أنا وحكومتى أن يكون الهدوء سائداً في الأزهر ، والشعب بعيداً عنه ، فلا يشتغل علماءه وطلبته إلا بتلقى العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيف العقائد وشغب الأفكار ، لأنه مدرسة دينية قبل كل شيء ؛ وقد استقال السيد على الببلاوى رعاية لصحته ، وقد جريت منذ اثنتى عشرة سنة على أن أقبل استقالة كل من يستقلى منى وظيفته ، فقبلت استقالته ، ومن يستقلى منى وظيفته سواء فأنا مستعد أن أقبل منه ، جرياً على العادة التى اتبعتها . ومن يحاول بث الشعب بالوساوس والأوهام أو الإيهام بالأقوال ، أو بواسطة الجرائد

والأخذ والرد ، فليكن بعيداً عن الأزهر ، ومن كان أجنبياً من هؤلاء ( يريد السيد محمد رشيد صاحب « المنار » ) فأولى أن يرجع إلى بلاده ، ويث فيها ما يريد من الأقوال والآراء المغايرة للدين ولمصلحة الأزهر والأزهريين .  
فلم ير الشيخ محمد عبده بدءاً من الاستقالة ، وقد آمن بعجزه عجزاً تاماً عن إصلاح الأزهر الذي يريد .

لم يلبث بعد هذه الحادثة أن أحسَّ وطأة المرض ، فعزم على السفر إلى أوربة للاستشفاء ، ولكن لم يمنعه ذلك من العمل في مجلس الشورى ومجلس الأوقاف والجمعية الخيرية الإسلامية ، وامتحن دار العلوم ، وإعداد مشروع مدرسة القضاء ؛ ثم ألح عليه المرض واختلّف الأطباء في تشخيصه : هل هو المعدة أو الكبد ؟ ثم تبين أنه — مع الأسف — السرطان ، فأشاروا عليه بعدم السفر . وفي يوم ١١ يولية سنة ١٩٠٥ فاضت رُوحه إلى ربها عن نحو ستة وخمسين عاماً ، وكان برمل الإسكندرية في منزل صديقه محمد بك راسم ، وقرر مجلس النظار أن تحتفل الحكومة رسمياً بتشييع جنازته في الإسكندرية ومصر ، وكان مشهداً مهيباً رائعاً ، ثم دُفن بقرافة المجاورين .

وكان الخديو متغيباً عن مصر ، فأنب من احتفل به ، أو احتفى بجنازته من رجاله .

وبعد ، فما إصلاحه ؟ وما مبادئه في الإصلاح ؟ وما أثرها في الأمة ؟

\*\*\*

صوّره السيد جمال الدين مرة تصويراً لطيفاً ، إذ رأى منه عزة نفس وإباء ضميم ، وترفعاً عن سفاسف الأمور وطموحاً إلى معاليها ، فقال له : « أي ملك في جلدك ؟ » .

وكان مع هذه العزة والإباء حتى الضمير حسّاس النفس عطوفاً على البائسين

والمنكوبين ، فماله أقله له وأكثره للإعانة والإغاثة والنجدة ؛ يصف شعوره في حريق ميت غمر فيقول : « لما قرأت وصف الحادثة كان لهبُ الحريق يأكل قلبي أكله لجسوم أولئك المساكين ، ويصهر من فؤادي ما يصهر من لحومهم ، أرقّت تلك الليلة ولم تغمضُ عيناى إلا قليلا ، وكيف ينام من بيت يتقلب في نعم الله وله هذا العدد الجمّ من إخوة وأخوات يتقلبون في الشدة والبأساء؟ أردتُ أن أبادر بما أستطيع من المعونة ، وما أستطيع قليل لا يُغنى عن الحاجة ولا يكشف البلاء ، ثم رأيت أن أدعو جمعاً من أعيان العاصمة ليشاركوني في أفضل أعمال البر في أقرب وقت » . وكذلك فعل في كثير مما أصاب البلاد من بلاء .

وصوره السيد جمال الدين مرة أخرى فقال له : « إن بين برديك فرداً يخرج رأسه في بعض الأحيان » يشير إلى ما يمتريه من الحدّة أحياناً ، كالذي كان منه مع الخديو عباس مما رويناه قبلُ ، وفي الدرس إذا سئل سؤالاً سخيلاً ، وفي بعض تصرفاته ؛ ولكن هذه الحدّة كانت أيضاً مصدر قوة له ، فكان يغضب لما يعتقده الحق ، وينفعل لما يصيب الناس من أذى ، والمنكوبين من مكروه ، ثم هذه الحدّة أضفت عليه من المهابة والتوقير الشيء الكثير .

وهو — مع هيئته وحدّته — طيب القلب سليم الصدر ، وفي لأصدقائه ، لطيف الحديث ، سَمح النفس ، ينصف الناس في الحق حتى من نفسه ، أَميزُ شيء فيه شجاعته الأدبية ، لا يدارى ولا يمارى ، ويقول ما يعتقد أمام أىّ عظيم ، ويعتمد في شجاعته على ربه وإيمانه . ولم سببت له شجاعته وصراحته من متاعب احتملها في صبر وثبات ، علماً منه بأن المقدمة لا بد أن تتبعها النتيجة .

وكان أهم خصائصه غيرته الشديدة على الإسلام والمسلمين ، هي محور أعماله ومصدر آلامه وآماله . حدثني صديق قال : « كنت أسير مع الأستاذ في « جنيف » من أعمال سويسرة ، وكنا نتلقى معاً بعض المحاضرات الصيفية في جامعتها ، فجاء

ذكر الإسلام والمسلمين ، فقال الشيخ : إني وهبت حياتي لإصلاح العقيدة الإسلامية وتنقيتها مما علقَ بها من الخرافات والأوهام . فقلت : وهل الدين عند العوامِ إلا الخرافات والأوهام ؟ وماذا يبقى عندهم لو زالت ؟ فرأيتُه وقد احمرَّ وجهه وغضب غضباً ما رأيتُه غضبَ مثلها ، فتأولتُ ما قلت حتى هدأت ثورته .

كم لاقى من عناء في سبيل إصلاحه ، وكم اتهم وكم سُبَّ وكم دُسَّ له ، وكم نصح له أصدقاؤه أن يستريح من هذا العناء ، ويعود إلى القضاء ، فما طاوعته غيرته أن يسمع لقولهم .

لقد ذكر الشيخ محمد عبده ما يصح أن يكون مجمع إصلاحه ، ومجمل رسالته ، فقال : « ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خاْطه وخبْطه . . . وأنه على هذا الوجه يعدّ صديقاً للعلم ، باعثاً على البحث في أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل . . . والأمر الثاني إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كان في الخطابات الرسمية أو في المراسلات بين الناس — وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يمجُّه الذوق ، وتنكره لغة العرب : الأول ما كان مستعملاً في مصالح الحكومة وما يشبهها ، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رثّ خبيث غير مفهوم ولا يمكن رده إلى لغة من لغات العالم ، لا في صورته ولا في مادته . والنوع الثاني ما كان يستعمله الأدباء والمتخرّجون من الجامع الأزهر ، وهو ما كان براعاً فيه السجع وإن كان بارداً ، وتلاحظ فيه الفواصل

وأنواع الجناس وإن كان رديئاً في الذوق ببدأً عن الفهم ، ثقيلًا على السمع ، غير مؤدٍ للمعنى المقصود.

« وهناك أمر آخر كنت من دُعائه والناس جميعاً في عمى عنه . ولكنه الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية . وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه . وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ، وهي لم يخطر لها هذا الخاطر على البال من مدة تزيد على عشرين قرناً ؛ دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يردّه عن خطئه ، ولا يقف طفیان شهوته ، إلا نُصح الأمة له بالقول والفعل . جَهْرًا بهذا القول والاستبداد في عُنفوانه ، والظلم قابض على صَوْلجانِه<sup>(١)</sup> ، ويدُ الظالم من حديد ، والناس كلهم عبيد له أيّ عبيد .

« ولم أكن في كل ذلك الإمامَ المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أني كنت رُوح الدعوة وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة ، ولا أبرحُ أدعو إلى عقيدتي في الدين ، وأطالب بإتمام الإصلاح في اللغة وقد قارب . أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأنني قد عرفت أنه ثمرة تجنبها الأمة من غراسِ فَرَسِه ، وتقوم على تنميته السنون الطوال ، فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يُعنى به الآن ، والله المستعان . »

في هذا القول الموجز كل حياة الشيخ محمد عبده الإصلاحية ، وكل رسالته ، وكل نجاحه وفشله . ثلاثة أمور أتجه إليها : إصلاح الدين ، وإصلاح اللغة والأدب ، وإصلاح السياسة . فلنذكر كلمة في عمله في كل منها .

(١) الصولجان : عصا موجهة الرأس .

فأما إصلاحه الديني فاتجه فيه إلى إصلاح الأزهر . وكان رأيه أنه إذا أُصلِحَ خَدَم العالم الإسلامي أكبر خدمة ، لأنه سيخرج قوماً غيراً على الدين ، متنورين ، ينبشون في جميع أنحاء العالم الإسلامي فيحملون مثل رسالته ويقومون بمثل دعوته ؛ وقد استعان على ذلك بالخدوي والإنجليز وبتنصيبه وجاهاه وأصدقائه ، ثم كان من أمره ما ذكرنا ؛ ولهذا وأمثاله وصفه اللورد كرومر بأنه « كان رجلاً مستنير الرأى ، بعيد النظر ، خيالياً ، حالماً بعض الشيء ، ولكنه كان وطنياً صادقاً » .

ومع أنه لم يصل في الأزهر إلى ما يريد ، ولا إلى بعض ما يريد ، فقد خَلَفَ فيه طبقة مستنيرة ، وإن كانت قليلة ، اعتنقت مبادئه وتشبعت بأرائه ، وإن لم تكن لها حماسته وغيرته .

واتخذ أهم وسيلة لإصلاح العقيدة تفسير القرآن الكريم ، جملة دَيْدَنَه يدرسه في بيروت في مسجدين ، ويدرسه في أحد مساجد القاهرة وهو قاض ، ويدرسه في الأزهر وهو في القضاء والإفتاء ، ويتخذ موضوع محاضراته في الجزائر تفسير سورة العصر ، ويفسر جزء عم لتلاميذ مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، وينشر دروسه في التفسير في مجلة المنار ليُقرأ في العالم الإسلامي .

كان يقرأ الآية ، فإذا اتصلت بالعقيدة شرحها شرحاً وافياً ، عارضاً ما ورد في القرآن في موضوعها ، مبيناً ما دخل على المسلمين في هذه العقيدة من فساد ودخيل ، وإذا اتصلت الآية بالأخلاق أبان أثر هذا الخلق في صلاح الأمم وضياعه في فسادها ، وإذا اتصلت بحالة اجتماعية أوضح أثر هذه الحالة الاجتماعية في حياة الأمم ، مسترشداً بالواقع ، مستشهداً بما يجري في العالم ، في بيان متدفق ولسان ذليق وصوت جميل أخاذ ؛ فهو تفسير عملي يشرح الواقع ويبين سببه ، وهو أخلاقي يدعو للعمل على مبادئ الإسلام ، ويبين أنها منبع السعادة في كل العصور ؛ وهو روحاني يدعو إلى السموات بالنفس إلى العالم العلوي ، وينزّه الله عما

دخل على العقيدة من فساد بالإشراك مع الله الأولياء وعبادة الأضرحة والتشفع بأهل القبور ، وإقامة الموالد ونذر النذور ؛ وهو في كثير من مبادئه يشبه تعاليم الوهابية في الرجوع إلى الأصول الأولى للإسلام ، وتنقيته من البدع والخرافات والأوهام ؛ ولكنه يتقبل ما صلح من مبادئ المدنية الحديثة ، ويدعو إلى الأخذ بها ما اتفقت والإسلام .

الإسلام دين توحيد لا شرك فيه ، تنزيه لا تجسيم فيه ، وهو دين يعتمد على العقل ويستنهضه لإدراك أن العالم له صانع واحد عالم قادر ، والعقل ضروري للدين ، فهو المرشد إليه ، والدين ضروري للعقل لأنه يكمله ويقومه .  
والإسلام يفسح صدره للعلم ويدعو إليه ، لأن العلم يكشف أسرار الكون ، وذلك يفضي إلى معرفة الله وإجلاله .

وهو في تفسيره يحاول التوفيق بين الإسلام ونظريات المدنية الحديثة ، ويتبع طرقاً من التأويل للتوفيق بين الدين ونظريات العلم .  
أكبر قيمة له في تفسيره أنه كان يحبي العواطف ، ويحرك المشاعر ، أكثر مما يستقصى بحث المسائل العلمية ؛ فهو يتجه إلى القلب أكثر مما يتجه إلى العلم والعقل ، متأثراً في ذلك بطبيعة الدين نفسه ؛ أفادته سمة اطلاعه على الفلسفة الإسلامية تم اتصاله بالثقافة الغربية ، وقراءته بعض أصولها ، ورحلاته إلى أوربة ، وملاسته لحياتها ، ومقابلته لبعض فلاسفتها ، وسماعه بعض محاضراتها ، أن ينظر إلى حال المسلمين نظرة إشفاق في عقيدتهم وأعمالهم ، فيبت كل ما يرى من إصلاح حول تفسير آيات القرآن .

واستمر يدرس هذا الدرس في الأزهر نحو ست سنين ، كان يحضره كثير من عليّة القوم وكبار القضاة والموظفين وشباب الأزهر والمدارس العالية ، وكان درسه ذا أثر كبير فيهم .

كان يرى أن إصلاح المسلمين من طريق دينهم أيسر وأصح من إصلاحهم من طريق الإصلاح المعتمد على مجرد العقل ومقياس المنفعة والتقليد الأوربي ، وأن هذا الطريق هو الذي سلكه جميع المصلحين المسلمين . يقول : « إن الغرض الذي يرمى إليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد ، وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين ، حتى إذا سَلِمَت العقائد من البدع ، تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، واستقامت أحوال الأفراد ، واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية ، دينية وديوانية ، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة ، وسرَى الإصلاح منهم إلى الأمة . . . وإذا كان الدين كافلاً بهتذيب الأخلاق ، وإصلاح الأعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة به ما يئناه ، وهو حاضر لديهم ، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره ؟ » .

وعلى هذا الأساس في التفكير كان يريد أن يسيطر على برامج التعليم في المدارس ، حتى يصلح النفوس من هذا الطريق ، بالتوسع في التاريخ الإسلامي ، وبث مبادئ الدين الصحيح ، ولهذا كان ينتهز كل فرصة لتقديم تقرير عن التعليم ؛ ففعل ذلك لما كان في الوقائع قبل الثورة العراقية ، حتى شكل مجلس التعليم الأعلى بناء على سعيه ، وكان هو فيه عضواً بارزاً ، وفعل ذلك عندما كان في بيروت ، فكتب تقريراً في إصلاح التعليم رفعه إلى شيخ الإسلام في الأستانة ، حتى لم يتحرج أن يرفع تقريراً بذلك إلى اللورد كرومر بعد عودته ، فلما لم تتحقق مطالبه رجا أن يكون على رأس دارالعلوم يبت روحه في طلبتها فيبثون روحهم في طلبتهم ، فلما يئس من ذلك أيضاً وجه همته إلى الجمعية الخيرية الإسلامية يضع لتلاميذها مناهج دراستهم ، ويؤلف لهم تفسير جزء عم . وهكذا كان دائماً يريد أن يسيطر على التعليم ليوجهه الوجهة التي يريد بها .

وكما جدّ في نشر تعاليمه وآرائه في الإسلام جدّ في الدفاع عنه ، وكانت

تأخذه الغيرة الشديدة إذا مسّه أحد بسوء . يتجلى ذلك في موقفين شهيرين :

١ — رده على هانوتو — ففي أوائل سنة ١٩٠٠ نشر هانوتو مقالا عن

الإسلام بمناسبة سياسة فرنسا في المستعمرات الإسلامية ، ثم تعرض للمقارنة بين  
المدنية النصرانية والإسلامية ، ووازن بينهما في مسألتين : ذات الله والقضاء والقدر .

فقال : إن اعتقاد النصارى في التثليث ، وتصورهم للإله الإنسان جعلهم يرفعون

مرتبة الإنسان ويخوّلونه حق القرب من الذات الإلهية ؛ على حين أن العقيدة

الإسلامية بدعوته إلى التوحيد وتنزيه الله عن البشرية ، حملت الإنسان على

الضعف والوهن ، والعقيدة المسيحية القائلة بحرية الإنسان وإرادته ، دفعته إلى

العمل والجدّ ؛ أما عقيدة المسلمين في القضاء والقدر فحملتهم على الجود والركود .

ونُشرت ترجمة هذا المقال في المؤيد ، فلم يزم الشيخ محمد عبده ليلته حتى

كتب الرد عليها ، وظهرت أول مقالة له في ثلثي يوم ، ثم تتابعت مقالاته ، بين

فيها فضل الإسلام ، وأن عقيدة التوحيد أسمى فكرة ، وأن الإسلام لم يدعُ إلى

الجبرية بالمعنى الذى يفهمه هانوتو ، وأن فى القرآن أربعاً وستين آية تثبت حرية

الإرادة إلخ . وكان من نتائج هذا كتابه المشهور « الإسلام والنصرانية » .

٢ — وأما الموقف الثانى فقد نشر فرح أنطون فى مجلة « الجامعة » مقالا

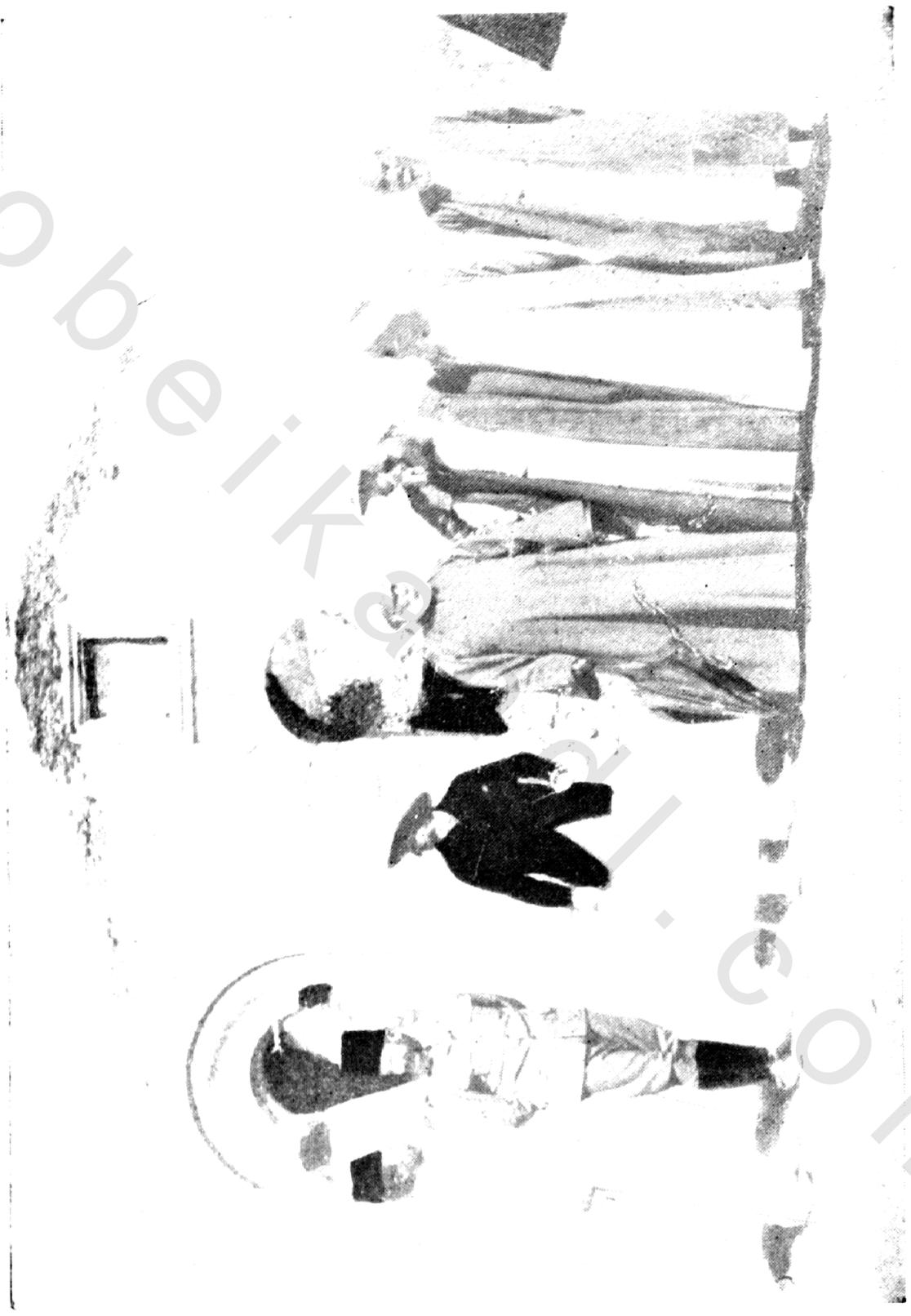
عن ابن رشد قرر فيه أن المسيحية كانت أوسع صدراً وأكثر تسامحاً للعلم

والفلسفة من الإسلام ، فرد عليه الشيخ محمد عبده فى سلسلة مقالات ، يثبت فيها

سعة صدر المسلمين للفلاسفة وأهل العلم والأديان الأخرى ، مما لم يكن له نظير

فى أى دين آخر .

وهكذا كانت حياته فى خدمة دينه .



الشيخ محمد عبده في السودان مع طائفة من العلماء ومفتش الإنجليزي وسلاطين باشا

أما إصلاحه اللغوي والأدبي فقد بدأ بإصلاح أسلوبه نفسه ، أخذ يكتب في جريدة الأهرام بأسلوب متأثر بالكتب الأزهرية ، وخاصة بما ألف في الفلسفة الإسلامية ، وبما هو شائع في ذلك العصر من السجع والازدواج ، وبمقدمات طويلة قبل الدخول في الموضوع . ثم أخذ يقوى أسلوبه ويصحّ ويزداد حركة وقوة من روح أستاذه جمال الدين ، كما يتجلى في مقالات العروة الوثقى ، ثم سرن قلمه وتدفق من طول ما كتب وعالج ، حتى بلغ غايته في مقالاته في الرد على هانوتو ، حيث تجمل بجمال البساطة وتدفق المعاني ، في سلاسة وقوة .

ونظر إلى أساليب الكتاب فحاول إصلاحها ما استطاع ؛ فكان يقدم نماذج للكتابة أيام كان مشرفاً على الوقائع المصرية بما يكتبه هو وأصحابه فيها ، وكان يلفت نظر الجرائد إلى سوء أسلوبها ، ويُلزم أصحابها أن يختاروا من يرفع مستوى الكتابة فيها .

ولما كان في بيروت كان يعلم في « المدرسة السلطانية » الإنشاء . ونشر مقامات بديع الزمان الهمداني بعد أن ضبطها وشرحها ، و« نهج البلاغة » بعد أن ضبطه وشرحه ، يرمى بذلك إلى تغذية الناشئين بأدبهما واتخاذها نموذجاً من نماذج الأساليب الجيدة .

ولما عاد إلى مصر كان من دروسه درس في البلاغة لا على نمط البلاغة التي أفسدتها الفلسفة ، بل على النمط الذي يربي الذوق ويرقي الأسلوب ؛ فقرأ كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، وكان هو السبب في نشرهما ، فقدم بهما معنى للبلاغة لم يكن مفهوماً للناس من قبل .

وفي سنة ١٣١٨ أسس في مصر جمعية برياسته سُميت « جمعية إحياء الكتب العربية » كانت فاتحة أعمالها نشر كتاب المخصّص في اللغة ، وقد عهد في تصحيحه للعالم اللغوي الشيخ محمد محمود الشنيطي . وشرعت الجمعية بعد

المختصر في إعداد مَدُونَة الإمام مالك للطبع بعد أن استحضر لها الشيخ محمد عبده أصولاً من تُونُس وفاس .

وهو الذي أخذ بيد الشنقيطي ولولاه ما بقي في مصر ، فكان الشنقيطي عالماً من أعلام اللغة يعلمها للناس ويصحح ما تعقد من الكتب ، وينشر البحوث اللغوية الدالة على اطلاع واسع وتدقيق عميق .

وهو الذي عهد إلى الأستاذ سيد المرصفي في تدريس كتب الأدب بالأزهر ، أمثال كتاب الكامل للمبرد وديوان الحماسة لأبي تمام ، ولم يكن ذلك معروفاً من قبل ، فكان عمله هذا سبباً في نهضة لغوية أدبية واضحة تأثر بها كثير من الأدباء البارزين وتلاميذهم . فإن قلنا إنه حوّل الكتابة من كتابة مسجوعة سخيفة إلى كتابة مرسلة جميلة ، ومن كتابة فارغة المعاني إلى كتابة يُعنى فيها بالمعاني لم نبعد .

أما إصلاحه السياسي فكان في مجلس الشورى مذعُين عضواً به ، فكان قوة فعالة فيه . قال صديقه حسن عاصم وكان زميلاً له في المجلس : « لقد عُيِّن الشيخ محمد عبده سنة ١٨٩٩ ، وكان بين أهل الحَلِّ والمَقْد في الحكومة وبين رجال مجلس الشورى شيء أشبه بالخلاف في الرأي ، أدى إلى أن الحكومة نفذت كثيراً من المشروعات التي كان المجلس يرى الخير للأمة في عدم العمل بها ، وصرفت النظر عن كل أوجه التعديل في المشروعات التي كان يرى أن الصلاح والنفع للأمة في تعديلها . فلما جاء الأستاذ إلى المجلس ونظر في الأمر نظرة الحكيم البصير ، وعرف أن ليس هناك ما يدعو إلى هذا الانفراج ، وإنما هو سوء التفاهم باعد ما بين المَشَارِب على تقاربها ، سعى رحمه الله في أن يزِيل أسبابَ هذا الخلاف ، فكان ما أراد ؛ وعرفت الحكومة أن المجلس إنما يطلب ما فيه سعادة الأمة ، ويتعنى الخير لها ، وأن ليس له غرض في مصادمة آراء الحكومة ومطالبها ما دامت تتفق مع مقصده ، وعلم المجلس أيضاً أن الحكومة

لا تقصد إلى شيء وراء ما يقصده لمصلحة البلاد ، وبذلك اتفقت الكلمة في الغالب ، ولم يعد بين الهيئة الحاكمة والهيئة النيابية من الخلاف ما يتسّر حله . وكان ما ترسله الحكومة من المشروعات يؤلف المجلس لجنة لدرسه ، وكثيراً ما تكون برياسة الأستاذ ، سواء أكانت المسألة قانونية أم اجتماعية أم شرعية ، حتى قد التهم المجلس وقته وهو لا يعبأ بالجهد يبذل فيه ، لأنه كان يرى أن عمله مع الأعضاء درس يعلم الجد والاهتمام بالأمور العامة للبلاد ، وأنه وسيلة لتربية الرأي العام .

هذه ناحيته السياسية الرسمية . أما غير الرسمية — وأعنى بها عمله في موقف الأمة من الحكام — فقد لخص موقفه منهما في قوله : « إنه يريد تنبيه الرأي العام حتى يميز ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة ، وأن الحاكم من البشر يخطئ ويصيب ، ولا يصده عن الخطأ إلا تيقظ الرأي العام ووقفه الحاكم — إذا تجاوز حدّه — بالقول أو الفعل . ووسيلة تنبيه الرأي العام التعليم ، وخاصة التعليم الاجتماعي ، والصحافة النزيهة ، وتربية القادة في مجلس الشورى وأمثاله ، فيدرسون المسائل درساً وافياً ، ويبدون الرأي في إخلاص وأمانة ، فيكون هذا كله درساً يقلد عند طبقات الشعب . هذا النحو من السياسة — وهو الاعتماد في النضج السياسي على التعليم والتربية — برنامج عقلي لا برنامج شعوري ، وهو قلما ينجح في الدعوة السياسية ؛ إنما ينجح فيها من يعتمد على الشعور ، وإلهاب العواطف . ولذلك نجح عبد الله نديم ومصطفى كامل سياسياً أكثر مما نجح محمد عبده .

ولعله هو قد أدرك ذلك فقال في أمر الحكومة والمحكوم : « إني تركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره » . وفي هذا القول نعمة يأس ، وشعور بالفشل . سببت له دعوته الإصلاحية الدينية ومذهبه السياسي خصومات ذوات ألوان ؛

فدعوته الدينية حركت عدااء الجامدين من رجال الدين الذين حياتهم الدينية مملوءة بالأولياء والأضرحة والنذور والموالد والشفاعة ، كما حركت عدااء قوم يرون مصدر الأحكام والفتوى ليس إلا أقوال المتأخرين من الفقهاء ، وليس لأحد كائناً من كان أن يجتهد ويقدر الظروف والأحوال ، أو أن يرجع إلى الدين في أصوله الأولى يستمد منها أحكامه . وآخرون دفعهم الحسد إلى خصومته ، إذ أخل شأنهم ، وأبان ضعفهم ، وأظهر نقصهم ، فخاربه باسم الدين . وآخرون غير هؤلاء ، وهؤلاء تألبوا عليه ، كالخديو عباس : كرهه سياسياً ، ولكنه حاربه دينياً ، فخرّص عليه بعض رجال الدين ليسقطه في ميدان السياسة .

وهناك خصوم شرفاء أكثرهم ممن تعلم في أوربة يرون أن الشيخ طيب القلب محب للخير ، ولكنه يسلك طريقاً مسدودة ، فيحاول إصلاح الأزهر وليس يصلح ، ويحاول الإصلاح الاجتماعي من طريق الدين ، وهم يرون الإصلاح الاجتماعي إنما يكون عن طريق العقل وحده ، والتقليد لأوربة فيما وصلت إليه من شرائعها ونظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ؛ وهكذا كل هؤلاء تجمعوا عليه في خصومته في الإصلاح الديني . ومع هذا فهذه الخصومات زادت الحركة قوة والحياة نشاطاً ، واستخرجت من الشيخ محمد عبده أقصى قواه وملكاته ، واستخرجت من خصومه بأقصى قواهم وملكاتهم .

وحاربه في السياسة الحزب الوطني ، لأنه لا يرى رأى الأستاذ في إصلاح التعليم أولاً ، بل بالجللاء أولاً ، ولا يرى رأيه في الاعتماد في السياسة على العقل ، بل بالاعتماد على الشعور ، ولا يرى رأيه في مسألة الإنجليز بل بمخاصمتهم العنيفة . واشترك خصومه الدينيون والسياسيون في تهبيج الرأي العام عليه ، ومحاولتهم إسقاطه من أعين الناس ؛ هؤلاء يرمونه بالكفر الديني ، وهؤلاء بالكفر السياسي .

ثم ذهب هذا كله ، ومات الشيخ محمد عبده ، وزالت الأحقاد وذهب الزبدُ جُفاءً<sup>(١)</sup> وبقِيَ ما ينفع الناس .

لقد أيقظ الشيخ محمد عبده الشعور الديني ، وأشعر المسلمين أنهم يجب أن يهبوا من رقدتهم لإصلاح نفوسهم وتكميل نقصهم ، والألا يعتمدوا على الفخر بماضيهم ، بل يبنوا من جديد لحاضرهم ومستقبلهم . ودعا إلى أن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين ، فالدين عُرف بالعقل ، ولا بد من اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معاً حتى نستطيع أن نواجه المسائل الجديدة في المدنية الجديدة ، ونقتبس منها ما يفيدنا ، لأن المسلمين لا يستطيعون أن يعيشوا في عزلة ، ولا بد أن يتسلحوا بما تسلح به غيرهم ، وأكبر سلاح في الدنيا هو العلم ، وأكبر عمدة في الأخلاق هو الدين ، ومن حسن حظ المسلمين أن دينهم يشرح صدره للعلم ويحض عليه ، وللعقل ويدعو إليه ، وللأخلاق الفاضلة التي تدعو إليها المدنية الحاضرة .

لقد خلف في هذه الآراء كلها مدرسة تأخذ بتهاليمه وتعتمد على آرائه ؛ منهم من أخذها عليه شفاهاً ، ومنهم — في الأقطار الإسلامية المختلفة — من أخذها عنه بما نشره في كتبه ومقالاته ، وكانت مدرسته هذه مدرسة قوية الأثر واضحة المعالم . وحسبنا دليلاً على هذا أن أكثر من تصدوا للإصلاح الديني أو الاجتماعي أو السيامي بعده كانوا من تلاميذه أو من أصدقائه المتأثرين به .

وزاده قوة أثر أنه لم يكن يدعو إلى الإصلاح نظرياً عن طريق التأليف أو الخطب والمقالات فقط كما يفعل بعض المصلحين ؛ بل كان يحاول دائماً أن يحاول إصلاحه إلى عمل ، وينغمس في الحياة الواقعية ليتمكن من تنفيذ برامج الإصلاحية . فإن مات وفي نفسه غصّة من أنه لم ينل ما يريد ، فعزّاه أن الصالح من أفكاره لم يمت ، وظل يعمل في موته كما كان يعمل في حياته . رحمه الله ما

(١) جفاءً : باطلاً .

## خاتمة

أثرت دعوة هؤلاء المصلحين وأمثالهم في الأمم الإسلامية ، فأعلت مستواها ورفعت من شأنها ، فكانت حالتها بعدهم ، خيراً مما كانت قباهم .

لقد عاصر أكثرهم غزوة الغرب للشرق واستيلاءه عليه ، فلما غزاه حمل معه مدينته ، سواء منها ما كان مدنية مادية كالسكك الحديدية والآلات الصناعية والمخترعات الحديثة ، وما كان مدنية معنوية كالأفكار والعقائد والعادات ونظم الحكم ونحو ذلك . فأما الحضارة المادية فقد تقبلها العالم الإسلامي في سهولة ويسر ، لظهور نفع أكثرها ورخصها وملاءمتها للحياة ، ولأن الأوربيين كانوا يشجعون نشرها بكل الوسائل ، إذ كان انتشارها في مصلحتهم أيضاً ؛ فمدُّ السكك الحديدية في البلاد المحتلة يمكن من سلطانهم ، ويسهل لهم طريق حكمهم ، وانتشار المخترعات يفتح السبيل لتجارتهم ورواج مصنوعاتهم وهكذا . وقد تغلقت هذه المخترعات والأدوات والآلات في جميع طبقات الشعب ، وغزت الكوخ الحجير كما غزت القصر الكبير ، حتى كان جليباب الفلاح البسيط وصبغته من منتجات أوربة .

أما الحضارة المعنوية ، من أفكار وعقائد — فقد قوبلت بحذر — ولم تفتح لها الصدور كما تفتحت للحضارة المادية ، لأنها أحياناً تصدم العقيدة ، وأحياناً تخالف التقاليد والأفكار الموروثة . ولم تنتشر إلا في طبقات محدودة ، هي طبقات المثقفين ثقافة أجنبية أو من كان من تلاميذهم . ومع هذا فقد تقطر إلى الشعب منها بعض الأفكار والآراء من طريق الصحف وما إليها .

على كل حال كانت مشكلة المدينة الغربية وما صحبها من غزو من أعقد

المشاكل التي واجهها أكثر من ذكرنا ومن لم نذكر من المصلحين . وسلك كل منهم مسلكا يتفق ومزاجه وتربيته وعقليته ؛ فمنهم من كان يرى مسألة الأجانب والتفاهم معهم والاجتهاد في نشر العلوم الغربية ونظم الحكم الأجنبية وأساليب التعليم وبثها في الشعب حتى يقوى ، فيكون أهلا للاستقلال يطالب به ، ويستطيع أن يحافظ عليه إذا هو ناله ؛ كالسيد أحمدخان في الهند ، وخير الدين التونسي في تونس ، وعلى باشا مبارك والشيخ محمد عبده في مصر . ومنهم من كان يأبى المسألة والتفاهم مع الأجنبي بحال من الأحوال ، إذ كان يعتقد أن الحرية أولا والإصلاح الداخلي آخرا ، ويرى أن لا فائدة من الإصلاح الداخلي ما بقي الاحتلال ، فالاحتلال مهما كان كَيْسًا لبقًا لا يسمح بالإصلاح الجوهرى ، لأنه يحاربه في الصميم من استعمارها ، كما نرى في السيد جمال الدين وعبد الله نديم .

ثم كانت المدنية الغربية نفسها وما تحوى من أفكار وآراء وآداب تحمل في ثناياها حب الحرية ، وتبث في نفوس قارئها الشعور بحقوق الإنسان ؛ فالطبقة المثقفة ثقافة أجنبية ، سواء منها من ثقف في الخارج أو في الداخل ، اطعموا فيما اطعموا على تاريخ المدنية الأوروبية وكيف جاهدت الأمم في نيل استقلالها ، وكيف ناضلت في الحصول على حقوقها ، ثم كيف تنعم البلاد المستقلة بحريتها وتدير شئونها بنفسها وتوجهها أمورها لمصلحتها ، فترجوا هذه الأفكار وهذه المشاعر إلى أممهم ، فزادت في وعيهم ويقظتهم وتنبيههم والمطالبة بحقوقهم ؛ ومن أجل ذلك شهد القرن التاسع عشر سقوط أكثر الممالك الإسلامية في يد الغربيين أولا ، وسهولة حكمها واستغلالها ثانياً ، ثم اضطرابها والمناداة باستقلالها وصعوبة حكم الأجنبي لها ثالثا ؛ بسبب ما أسلفنا من أسباب .

وكان الجيل الجديد الذى نشأ في عهد الاحتلال أقرب إلى قبول المدنية الغربية من آباءه ، كما كان أشد وعياً وتنبيهاً ، حتى كان الفرق بين الأبناء والآباء في القرن

التاسع عشر أوسع من الفرق الذي كان بين أهل القرن الثامن عشر والخامس عشر .  
ومع هذا ظل للتقديم أثره وللجديد أثره — ترى هذا في الملابس البلدية  
والملابس الأفرنجية ، وفي نظم التعليم المدنية والدينية ، وفي المحاكم الأهلية والشرعية ،  
وفي الاعتقاد بالسبب والمسبب وبناء العمل على ما أثبتته العلم إلى جانب الاعتقاد  
بالحظ وأعاجيب القدر .

ونشأ عن هذا اختلاف كبير في العقليات ، لا اختلاف بسيط كالذي يكون  
بين أفراد الصنف الواحد ، ولكنه اختلاف كبير كالذي يكون بين الأصناف  
المتعددة — ولا تزال هذه الخلافات الكثيرة تصهر في بُوْتَقَة<sup>(١)</sup> واحدة . ومن عمل  
المصلحين إشعال النار القوية تحتها حتى يتم امتزاجها ويذهب زَبَدُهَا ، والزمن  
كفيل بذلك ، وغيره المصلحين وحماسهم تعمل على سرعة الوصول إلى الغاية .  
ومما زاد الأمر صعوبة في تطبيق ظواهر المدنية الغربية في الشرق أنها نشأت  
بالتدريج في الغرب ، واتصلت كل الاتصال بتاريخه وأحداثه وبيئته الطبيعية  
والاجتماعية ، ثم جاءت إلى الشرق دفعة واحدة من غير تمهيد ، ودخلت على عادات  
وتقاليد ومواضع موروثه تخالفها كل المخالفة ، فكانت المنازعات شديدة والصدمة  
قوية ، وفي المدنية الغربية ما لا يتفق ومزاج الشرق وأخلاقه ، وفيها ما هو ضار  
بالشرق وما هو نافع ، وتصفية ذلك كله أمر عسير يدعو إلى طول التفكير .  
ثم بدأ الوعي القومي للأمم الشرقية يقننه في أواخر القرن التاسع عشر ،  
ووجد في كل قطر زعماء سياسيون يعلمون أنهم دروس الحرية وحقهم في حكم  
أنفسهم بأنفسهم ، ويرسمون لهم الخطط في عرقلة الحكم الأجنبي ووضع الصعاب  
في سبيله . وجاء القرن العشرون فازدادت هذه الحركة قوة ، ولكن بدل أن  
يقدرها الغرب قَدْرَهَا ، ويسايرها بملايتها والنزول عن بعض سلطانه لها ،

(١) البوتقة : الوعاء يذيب الصائغ فيه المعدن .

ومساعدتها على المرانة في حكم نفسها ، قابل القوة بالقوة والعنف بالعنف ، وواجه المطالبة بالحرية بزيادة التضييق على الحرية ؛ فازدادت كراهية الشرق للغرب ، واتسعت شُقة الخلف بينهما . ووجد في هذه الآونة من يدعون إلى الإصلاح الاجتماعي الداخلي ، ولكن صوتهم كان خافتاً بجانب الزعماء السياسيين ، وقويت هذه الظاهرة على سمر الأيام ، حتى إننا نرى في مصر — مثلاً — أنه لم يتم مصلح اجتماعي بعد « قاسم أمين » على حين أن سلسلة الزعماء السياسيين لم تنقطع ، وتبع هذا أن عواطف الشعوب كانت تتجاوب وزعماء السياسة أكثر مما تتجاوب ودعاة الإصلاح الاجتماعي .

وتزاحمت الأمم الأوربية على استغلال الشرق ، وتدافعت المناكب ، حتى كان ذلك من أهم أسباب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، فلما اشتد القتال وودَّ كل فريق أن يكسب الحرب بأي ثمن ، بُذلت الوعود للشرق بأنه إذا بذل المعونة في الحرب عُوِّض عن ذلك بتحقيق أمانيه ، وخطبت في ذلك الخطب الرنانة ، وقيلت الأقوال البديمة في حق الشعوب المستضعفة في الحرية . ولكن ما انتهت الحرب ، وجاء دور عقد المؤتمرات ، حتى أخلفت هذه العهود ، فبلغ الغضب من الشرق ما يبلغه من الرجل أصيب في شرفه وخُدع في كرامته .

وكان من نتيجة هذا أن استمر الشرق في نضاله ، وارتفع صوت المتشائمين الذين يسيئون الظن بأوربة ، وخفت صوت المتفائلين الذين يدعون للمصالحة — فلما جاءت الحرب الثانية مُثلَّ الدور من جديد ، ولكن كان الشرق قد اشتد وعيه ، وقوى ساعده ، فنال بعض أقطاره قسطاً وافراً من حرّيته واستقلاله ، وبعضها قسطاً أقل ، وبعضها لم ينل شيئاً ؛ وذلك تبعاً لاختلاف حالة كل قطر في قوته المعنوية وملاساته المحيطة به . ولكن على كل حال شجع من تقدم من تخلف ، ومن ظفر من لم يظفر .

وتكشفت الحرب العالمية الثانية عن قلق عام ساد العالم كله ، وزلزلت المدنية الحديثة من أصولها ، وتنازعت المذاهب السياسية والاجتماعية ، واضطربت أصول الحكم ، وفقد العالم إيمانه بالنظم القديمة ، ولم يهتد إلى ما يرضى عنه من نظم جديدة ، ولا يزال إلى اليوم في غليانه .

واشترك الشرق في هذا القلق ، وزاد على ذلك قلقه الخاص نحو مستقبله وموقفه من أوربة ، وكل هذا القلق والاضطراب في الشرق يعرض لأزمات خطيرة ، ومواقف دقيقة ، يُتَمَسُّ معها القادة الذين يوجهونه نحو الطريق الآمن ، والهداة الذين يرشدونه لبلوغ الغاية .

ولم تكن مشاكل الشرق الاجتماعية بأقل تعقيداً من مشاكله السياسية . فقد كان الشرق يعيش على أساليبه القديمة الزراعية والصناعية والتجارية ، يزرع كما يزرع آباؤه الأوتون زراعة مؤسسة على التقاليد الموروثة ، لا على نظريات العلم المدروسة ، تُستخدم فيها الآلات التي استخدمت منذ فجر التاريخ . وكانت الصناعات ساذجة بسيطة ، وما أتقن منها كان قليلاً جداً ، يتخذه الأغنياء والمترفون تحفة من التحف ، أو طرفة من الطرف ؛ والتجارة كانت على عهدا القديم في أساليب المعاملات والأخذ والعطاء . فجاءت المدنية الغربية وقلبت هذه الأوضاع كلها ، فالزراعة أسست على العلم واستخدم فيها آلات جديدة ، والصناعة التي كانت تعتمد على سواعد الإنسان وقوة الحيوان اعتمدت على البخار والكهرباء ، وأنتجت في اليوم ما كانت تنتجه في سنين ، وتوالت المخترعات في كل باب من أبواب الصناعة فأكثر الإنتاج ، وأرخصت الأثمان ، وبذلك استطاعت الصناعة الأوربية أن تغزو الصناعات الشرقية وتفتحها كما فتحت الآلات الحربية البلاد الشرقية . وكذلك الشأن في التجارة ، أصبحت لها أساليب جديدة ، وأصبحت تقوم على الشركات أكثر مما تقوم على الأفراد ،

وعلى رهوس الأموال الضخمة لاعلى رهوس الأموال الفردية القليلة، واخترعت أساليب للمعاملات جديدة تسهل عمليات الأخذ والعطاء. وهذه أيضاً وردت على الشرق مع الغزاة الفاتحين. هذا إلى أن القامنين بالتجارة في الشرق من الأوربيين كانوا أوسع علماً وأكثر خبرة وأرق عقلاً، فنجحوا في تجارتهم حيث لم يبق للتجار المواطنين إلا فتات الموائد.

وأخيراً تنبه وعى الشرق من هذه النواحي كما تنبه وعيهم السياسي، فأخذوا يستغلون الآلات الزراعية الجديدة، وإن كان ذلك في حدود ضيقة، وأخذوا يفهمون عظمة الصناعة الأوربية وقوتها، ويقلدونها ويحاكونها، وأدركوا أن الاعتماد على الزراعة وحدها لا يكفي لحياة الأمم، فبدأ كثير من الأمم الشرقية يؤسس الصناعة بجانب الزراعة، ويستخدم الآلات الصناعية الأوربية ويستغلها، ويفرض الضرائب على ما يأتي من الخارج لحماية الصناعة في الداخل. وكذلك الشأن في التجارة والمعاملات المالية، فقد فهم الشرق طرق الغرب في التجارة وأساليبها، وأخذ يكون الشركات وينشئ المصارف ويتعامل بعضهم مع الأوربي معاملة الند للند. ورق الصناعة والتجارة والتوسع فيهما يخلق أهل البلاد — عادةً — بأخلاق غير الأخلاق الزراعية، إذ يجعلهم أقدر على تحقيق مطالبهم، بحكم سهولة اجتماعهم، وبحكم سهولة احتكاكهم بأمثالهم من الغربيين. وساعد على التقدم في هذا الباب أن كان الباعث عليه شعور الناس أن ليس يمكن الاستقلال السياسي إلا بالاستقلال الاقتصادي، ولكن لما يزل المدى بعيداً أمام تحقيق الغاية من ذلك، فالزراعة لم يتم تأسيسها على العلم، والصناعة لم يتم بناؤها على النظام والسرعة والإتقان، والشئون المالية لم تفهم حق الفهم، ولم تستخدم حق الاستخدام؛ وهذا ما يجعلنا ننتظر النابضين من المصلحين في هذا الباب.

ثم إن الشرق على العموم يعيش منذ القرن التاسع عشر على أساسين

متباينين : قديم ورثه من آبائه الأولين ، وجديد أخذه عن حضارة الأوربيين .  
يظهر ذلك في ملبسه ومسكنه وشارعه وجمياته وأنديته وأفكاره .  
وهذان العنصران يتفاعلان تفاعلاً غريباً ، ويتصادمان أحياناً تصادماً عنيفاً ،  
فترى الرجل يلبس اللباس الشرقي من عمامة وقباء أو طربوش وجلباب ، ويتحدث  
في التليفون المصنوع في إنجلترا ، ويحمل ساعة مصنوعة في سويسرة ، وفي البيت  
سجادة عجمية وحصير بلدي ورديو أمريكي ، وفي المجلس الواحد حديث عن قوة  
السحر والتعاويد وحديث عن نظرية دارون في النشوء والارتقاء ونظرية أينشتين  
في النسبية . وفي الناس من يمجّد كل قديم ويكره كل جديد ، ومنهم من يمجّد  
كل جديد ويكره كل قديم ، وهكذا وهكذا . والعنصران يعملان في كل أمة  
شرقية ، وإن اختلف مقدار كل عنصر في طبقاتها المختلفة ، فالطبقة الفقيرة يتجلى  
فيها عنصر القديم ، والطبقة الغنية على العكس من ذلك . هذا في الماديات . والطبقة  
المتعلمة على النمط الحديث أكثر تأثراً بالعنصر الجديد في الأفكار والآراء ، على  
العكس من الطبقة الجاهلة أو المتعلمة على النمط القديم ، وهذان العنصران يمتزجان  
امتزاجاً غريباً ، ويترتب على امتزاجهما والأخذ بهما محاسن ومساوئ ومزايا ومضار ،  
ففي القديم خير وشر ، وفي الجديد خير وشر ، فإلى أي حد ينتفع بخير القديم  
ويُتجنب شرّه ، وإلى أي حد ينتفع بخير الجديد ويتجنب شره ؟ هذا أيضاً  
ما شغل المصلحين .

والمرأة ، كانت قبل القرن التاسع عشر في الشرق جاهلة محجّبة ، تُربى داخل  
البيوت تربية منزلية ، ولا تعرف شيئاً مما وراء البيت ؛ ضيقة العقل ، محصورة الأفق .  
وهي التي يُعهد إليها في تربية الجيل ، فلما جاءت المدنية الغربية إلى الشرق  
أخذ عنها تعليم البنات وتربيتها وتهذيبها وفتح المدارس لها . فكان هذا تطوراً  
اجتماعياً خطيراً ، إذ أخذت المرأة تطالب بحريتها وحقوقها ، وأخذت تنال ذلك

شيئاً فشيئاً . ولكن نشأ عن ذلك ما هو طبيعي ، وهو أن من نال الحرية بعد فقدانها لم يحسن استعمالها أول عهده بها ، حتى يَمُرَّ عليها ويكتوى بنارها ، فيعرف بعدُ كيف يحسن استعمالها ؛ ووُجد لذلك مصلحون أمثال قاسم أمين في مصر ، والسيد أمير علي في الهند ، يطالبون للمرأة بحريتها ، كما وجد بعد ذلك من ينقدها في طريقة استخدامها لحريتها . والمرأة سائرة إلى الأمام ، وهي كل يوم تفتح باباً جديداً ، من سُفور ، إلى تعلم ، إلى مطالبة بتشريع ، إلى مزاحمة للرجل في الأعمال ، إلى طلب مساواة للرجل في جميع الشئون ، فنشأت عن كل ذلك مشاكل احتاجت وستحتاج إلى مصلحين ومصلحات .

ومع مشكلة المرأة مشكلة الأسرة ، فقد كانت من قبل تسير على « النظام الأبوي » فكل سلطة فيها للأب ، وأفراد الأسرة ياتَمرون بأمره ، ويخضعون لإرادته ، وهو المسيّر لشئونها المالية والاقتصادية والاجتماعية . فلما دخلت المدنية الغربية الشرق حملت معها حرية الأسرة ، فسفرت المرأة وأدركت أنها شريكة الرجل في إدارة البيت ، لها الحق في الإشراف على دَخل الرجل ووجوه إنفاقه ، ولها إبداء الرأي فيما يعمل وما لا يعمل ، وفي غُشيان دور السينما والتمثيل . وفهم الأبناء والبنات حقهم في إبداء الرأي ومناقشة الأب ؛ واصطدم النظام الأبوي القديم في الأسرة بالنظام البرلماني الجديد ، ولم ينزل الأب عن سلطانه في يسر وسهولة ، ولم تسر الأم والأبناء على النظام الجديد في رفق وهوادة ، فارتجت الأسرة بعد ثباتها ، وكثرت أحداثها ومتاعبها ، وطالبت المرأة الجديدة بالتشريع الجديد في تحديد سن الزواج وتقييد حرية الرجل في الطلاق ، وتعدّد الزوجات ؛ وقد أُجيبَت إلى بعض مطالبها ، ولما نزل تلخ في الباقي .

وعلى الجملة فقد أصبحت للأسر مشاكل عويصة كما لكل مَرَفِقٍ من

مرافق الحياة .

ثم مشكلة التعليم ، فقد كان التعليم عندنا سائراً على النمط القديم فيما يُعلم وكيف يُعلم ، فأخذنا بعض الأساليب الحديثة في التعليم كالذي رأينا في سيرة على باشا مبارك في مصر والسيد أحمد خان في الهند ، وخطا الشرق خطوات موقفة في ذلك ، ولكن لم يحل كل مشاكل التعليم ولا أكثرها ، فلا تزال الأمية فاشية ، ولا تزال الثقافة الشعبية ضعيفة ، وما اخترع من أساليب جديدة في التربية الأوربية لم يطبق التطبيق الكافي المفيد الواسع ، ولا يزال ما يجري من إحصاء للأميين والمتعلمين والمتقنين وغير المتقنين ، ومن تثقفوا ثقافة عالية ومن لم يتثقفوا هذه الثقافة ، يبعث على الأمل ويدعو إلى الإصلاح .

ولعل من أهم المشاكل التي تواجه العالم العربي الآن استخدامه لغتين : عامية وفصيحة ، والفرق بينهما كبير ، يستعمل إحداها في البيت وفي الشارع وفي المجالس ، ويستعمل الأخرى في الكتابة والقراءة ، ولم تنجح أية محاولة في التقريب بينهما ، وهذا أضعف من اللغة الفصحى لأنها لم تكتسب الحيوية التي تأتي من طريق الاستعمال اليومي ، وأضعف اللغة العامية لأنها لم تستفد مما ينتجها الأدباء والشعراء ؛ ولا تزال المشكلة عويصة تتطلب الحل من المصلحين .

ثم الفقر ، وهو مشكلة المشاكل ، فالسواد الأعظم من الشعوب الشرقية فقير لا يكاد يجد ما يُمسِكُ رَمَقَهُ<sup>(١)</sup> . مسكنه ضيق مظلم ، وملبسه قَدِر مهلهل ، وفقره يستتبع سوء حالته الصحية وحالته التهذيبية ، فالفقر والجهل والمرض عوامل متفاعلة متشابكة يؤثر كل عامل منها في الآخرين — والفروق بين طبقات الشعب الواحد في الشرق أكبر منها في الغرب . وقد كانت الحال تجري هادئة مطمئنة يوم كان الفلاح الفقير والعامل البسيط يستسلم للقدر ، ويوم كان يلطف من الفقر إحسان المحسنين ، ويوم كانت مطالب الحياة قليلة وأسعار السلع رخيصة . ولكن تعقدت

(١) الرمق : بقية الحياة .

الحياة وكثرت مطالبها ، وعدّ كثير من الأشياء ضرورياً بعد أن كان يعدّ كالياء ؛ وانتقلت أخبار الصناع والعمال في أوربة وما يُعمل لرفاهيتهم إلى الشرق ، فذبّ في فلاحة وصانعه الوعى بأنه يجب أن يعيش عيشة معقولة مقبولة ، فتألم — وزاد في وعيه ما يواجهه من غلاء الأسعار الذى لا يتفق ودخله ، فتشأ عن هذا كله ضرب من القلق والتذمر . وقد أخذت الحكومات تبحث أسباب الفقر وعلاجه وتعمل لإيقاد الفقراء من فلاحين وصناع ، ولكن لم تصل في ذلك إلى الغاية المنشودة ، ولا تزال المشكلة تنتظر الملاج .

وبعد الحرب العالمية الأولى نشطت في الغرب نظريات سياسية كبرى كالنازية والشيوعية والديمقراطية والاشتراكية ، وكان لكل منها برامج سياسية واجتماعية واقتصادية ، وبعضها يعادى بعضاً أشد العداة وأعنفه ، وتسابق كل في الدعاية لمذهبه ، والتشهير بخصومه ، واشتدت هذه الدعاية في الحرب العالمية الثانية ، وتفاءل المتفائلون بسلم ينعم فيها الناس بالطمأنينة والاستقرار ، ولكن خاب فألم ، فاشتد النزاع بعد الحرب واحتدّت الخصومات ، وتجاوبت النظريات ، وقويت الدعايات ؛ وانتقل كل هذا من الغرب إلى الشرق فلبيل أفكاره ، ورؤّع قاداته ، وجعلهم يتساءلون : إلى أين المصير ، وكيف المخرج من هذه المآزق ، وكيف تهدأ الأفكار وتطمئن النفوس ؟

وكان طابع القرن التاسع عشر في الغرب طابعاً مادياً بحتاً ، فهو لا يؤمن إلا بالمادة ، والعلم عنده هو العلم بالمادة ؛ وما ليس مادياً يخضع لأساليب البحث العلمى ليس إلا وهماً . ونتيجة هذا أن القيم الأخلاقية والدينية والفنية في نظرهم ليست إلا أموراً اعتبارية لا حقيقة لها ، وقدس علم الطبيعة والكيمياء ، وتحول علم النفس إلى المادية ، فكل مظهر من مظاهر النفس — من أفكار وبواعث — ليس إلا نتيجة لمادة الجسم ، وفُسّر الكون كله وأحداثه تفسيراً

مادياً — فلما أتت هذه الأفكار إلى الشرق — وهو المعتز بدينه الفخور بروحانيته — غضب منها وغضب ممن اعتنقها ؛ وجاء بعض المصلحين كالسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده بين مزايا الدين ، ويردّ على الملحدّين ؛ فكانت من ذلك حركة عنيفة بين المؤمنين والجاحدين . وأخيراً جاء القرن العشرون وتقدمت البحوث العلمية فى المادة وتكوينها ، فتبين لكثير من العلماء أن المادة وحدها تعجز عن تفسير الكون تفسيراً صحيحاً يركن إليه ، فعادوا إلى الروحانية والقول بالدين ، وظهرت موجة الإيمان بعد موجة الإلحاد . وكان الشرق دائماً يتأثر بما يظهر فى الغرب . ومهما كان فى الغرب فالشرق مهد الأديان ، يؤمن بها ويركن إليها ، ويرى أنها سنده فى حياته ، وأمله بعد مماته . وهو مع ذلك يرى أن الدين الصحيح لا يحارب العلم ولا يقف فى سبيله ، فكل مجاله ، ولكل مزاياه . ولكن ما هى حدود العلم وما هى حدود الدين ؟ ثم إن الدين يدخل عليه على توالى الأيام بعض الأوهام ، ويندس بين عقائده ما يتناقض مع أصوله ، فكيف ينقى هذا ويصفى ؟ كل هذا أيضاً عمل القادة المصلحين .

هذا عرض سريع لما يعرض الآن للشرق من مشاكل ، وقد علمتنا الأيام أن الحياة تتجدد ، ومشاكلها تتجدد ، وكلما تركبت الحياة واتسعت المدنية والحضارة زادت مطالب الناس وتقدمت مشاكلهم . والأمة الموقفة هى التى رزقت بمصلحين يغيرون لها السبيل فى الليالى الظلماء ، ويوجهونها خير الجهات عند ما تقف حيرى فى مفترق الطرق ، فيقفون من أمتهم موقف الملاح الماهر ، فى الرياح العاصفة ، والأمواج المتلاطمة ، حتى تصل إلى برّ السلامة .

وعمل المصلح من أشق الأعمال وأصعبها ، فهو يحتاج فيما يعالجه من إصلاح إلى درس دقيق ، وتفكير عميق ، حتى يحيط بالمشكلة التى يواجهها جملة وتفصيلاً

ثم يضع خطة الإصلاح في إتقان وإحكام على ضوء ما درس ، ثم يُعِدُّ الرأى العامَّ ليستجيب لدعوته ويتحمس لمطلبه .

هو — عادة — يلقى العقبات في طريقه ، والأشواك يُشَاكُ بها أثناء سيره ، لأنه بإصلاحه — يدعو إلى نوع من التجديد، والناس — في الأعم الأغلب — عبيد ما ألفوا ، فإذا دُعوا إلى جديد لم يألوه خصموه وحاربوه ؛ فإذا ألح المصلح في دعوته : ألحوا في خصومتهم . وكثيراً ما تنتقل الخصومة إلى إيذاء ، فيتهم في عقله وفي أمانته وفي شرفه ، وقد قال ورقة بن نوفل لمحمد صلى الله عليه وسلم حين عرّض عليه دعوته : « ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا أوذى » وقد رأينا فيما عرضنا من المصلحين في هذا الكتاب أنواع ما أصابهم من الأذى ، فمنهم من نُفِيَ ومنهم من سُجِنَ ومنهم من قُتِلَ ؛ ولكن لا يكون المصلح مصلحاً حقاً حتى يؤمنَ الإيمان العميق بدعوته ، وحتى تكون مبادئه أحب إليه من نفسه ، فيصبر على الأذى ، ويتحمل العذاب في ثبات ، حتى تنتشر دعوته وتتحقق مبادئه .

وكما أن لكل جيل مشاكله التي تنجم من نوع حياته ، فلكل جيل مصلحوه الذين يتناسبون وزمانه ؛ فلا بد أن يكون المصلح عارفاً لأمته ، مطلعاً على خفاياها ، واقفاً على أسرار نفسياتها ، خبيراً بطرق توجيهها ، يعرف كيف يخاطبها بلغتها ، وكيف يتملك زمامها ، وكيف يكون موضع تقديرها وإجلالها . ولا يكون ذلك حتى يكمل نفسه ويسبق قومه — وقد زرع المصلحون من سلفنا فحصدنا ، فليزرع شبابنا لمن يأتي بعدهم ليحصدوا ، جزاءً وفاقاً . ما